355

HARLEQUIN

روايات أحلام

متمردة

سوزان ستيفنز

www.elromancia.com

مرمورية

متمردة

تعود كايت فوستر إلى المزرعة التي كان يملكها أهلها في الريف الفرنسي . هناك أمضت أجمل أيام طفولتها . لكنها سرعان ما تكتشف أن المنطقة بأسرها بيعت للكونت غاي دو فينلوف ... إنه ذلك الفتى الذي أحبته وهي صبية صغيرة ...

كان غاي عازما على منع كايت من إعادة إحياء المزرعة إلى أن اكتشف أنها لم تعد تلك الطفلة التي كان يطاردها ويزعجها ... فها هي قد تفتحت كالوردة وأصبحت امرأة معتدة بنفسها و... رائعة الجمال .

فهل يستأنف الكونت حصاره لها . أم تثبت له أنها ليست لقمة سائغة بل قطة شرسة !

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-268-3

سوزان ستيفنز

كانت سوزان ستيفنز فيما مضى مغنية. أما اليوم فأكثر ما تعشقه هو القراءة وكتابة الروايات العاطفية. تعيش مع زوجها وأولادها في جو من الدفء العائلي وذلك في منزل صغير قديم، حيث تربي مجموعة من الحيوانات الأليفة، وهي تحب العزف على البيانو والغناء، كما تعشق ركوب الخيل والطهو والسفر وأعمال المطبخ.

ما إن تنتهي سوزان من كتابة قصة رومنسية حتى تبدأ بتخيل مواصفات بطلها للقصة القادمة، والذي سيكون، بلا شك، وسيماً، طويل القامة، وجذاباً، بالإضافة إلى تمتعه بذكاء حاد وروح مرحة..

١ - عودة الذكريات

- ولكن، يا آنسة... الكونت لديه اجتماع ولا يمكنه استقبال أحد.

- لكنه سيستقبلني.

قالت كايت فوستر هذا بثقة وهي تتجاوز الخادم إلى القاعة الفسيحة التي لم تتغير إلا قليلاً على مرّ السنوات.

أما هي فقد تغيرت.. هذا ما خطر لها بعد أن تفحّصت ما حولها وحددت المكان الذي اقتحمته. لم تشعر بالرهبة كما كانت تفعل وهي صغيرة، ربما لأن النجاح سمح لها بأن تزن الممتلكات المادية بميزان مختلف.

في الداخل، كان عدد من الرجال يجلسون حول مائدة بيضاوية وسط القاعة، وما إن دخلت حتى التفتوا وراحوا ينظرون إليها، ثم وقفوا جميعاً. لكن رجلاً واحداً كان موضع اهتمامها.

هتف بلطف: «كايت!».

بدا ذلك الصوت القيادي عميقاً ما اضطرها إلى بذل جهد لإبقاء بصرها ثابتاً. كانت قد نسيت مدى طوله... وجاذبيته. لم يكن غاي فيلينوف مجرد رجل جذاب... إنما بدا وكأنه مكوّن من عناصر لا مثيل لها؛ شعره النبي المائل إلى الحمرة بدا أكثر كثافة وبدت بشرته التي لوّحتها الشمس أكثر إشراقاً. أما أهدابه فأكثر طولاً وحاجباه الأسودان أكثر تعبيراً، وشفتاه... وحوّلت نظراتها عنه بسرعة وهي تدرك أنها هي أيضاً كانت في تلك اللحظة عرضة للتقييم، وأن هاتين العينين الرماديتين بنظراتهما الفولاذية الثاقبة

www.elromancia.com

تذكرانها بوضوح بما ينتظر المرأة التي تبهرها وسامة الكونت دي فيلينوف الباردة. لكن كايت عادت فذكرت نفسها بأن أقوى ما في الكونت هو إرادته الحديدية وذكاءه المتوقد، مع أنه يواريهما خلف مظهر خدّاع من الأناقة الفطرية و. . . والتهبت وجنتاها وهي تتذكر صفة أخرى هي أكثر مراوغة.

تظاهرت بالاهتمام ببعض اللوحات المعلقة على الجدار والتي تمثل مشاهد بحرية، ما سمح لنظرها بأن يتنقل ملتمساً أهدافاً عديدة بدلاً من أن يتركز على ذلك الهدف الوحيد المدمّر الذي ينتظر في آخر القاعة. حتى لو جعله التهذيب يتقبّل تطفلها هذا، إلا أنها أدركت أن مشاعر مختلفة جداً تختبىء خلف نظراته التي تشبه نظرات الصقر. قالت تحييه ببرودة متعمدة:

- حضرة الكونت غاي دي فيلينوف.

بدا في عينيه تساؤل ساخر لمخاطبتها له بهذا الشكل الرسمي، لكن عشر سنوات مرّت على آخر مرة تقابلا فيها، وزيارتها ليست زيارة اجتماعية. لقد تتبعت أخبار غاي فيلينوف بما يكفي لتعلم أن الفتنة والجمال هما أمران شائعان في عالمه، وأن من يتصور أن بإمكان الغواية الأنثوية أن تؤثر فيه في أوقات العمل، سرعان ما سيكتشف غلطته.

لطالما تمكّن من أن يتكهن بمزاجها بسهولة، وها هو الآن ينظر إليها وقد ضاقت عيناه. إنها اللعبة المألوفة. . . لعبة يلعب فيها دوراً قيادياً، حيث يقوم بإثارة الفتاة الصغيرة النارية الطباع الشقراء الشعر التي تزور مزرعة أسرته الواسعة. تلك كانت التسلية السنوية للكونت الشاب. لكن عشر سنوات مرّت على آخر مشاجرة بينهما. . . عشر سنوات أسست خلالها عملاً ثم خسرته، وقد شرعت حالياً في تأسيس آخر. عشر سنوات تعلمت أثناءها كيف تتعامل مع رجال مثل. . .

قاطع أفكارها بقوله: «كايت. . . . لم أرك منذ وقت طويل، بما أستطيع أن أساعدك؟».

وقفت كايت بعيدة عنه إلى حد آمن، ثم ردّت شعرها اللامع إلى الخلف. إنها تعرف قواعد لعبته، لكنها اليوم تريد من الكونت غاي دي فيلينوف أمراً مختلفاً تماماً.

- كايت!.

شعرت بالدفء يتدفق من عينيه محرّكاً في نفسها شيئاً لم تستطع فهمه لكنه أثار اضطرابها. وتساءلت، لجزء من الثانية، عما إذا كانت قد أخطأت في قدومها إليه مباشرة. بدا صوته العميق ذو اللكنة الأجنبية الرقيقة مغرياً، وكان من الصعب أن تتجاهل حقيقة أن السنوات العشر التي مرّت زادت في صقل بنيته القوية. حوّلت نظراتها بعيداً، ثم مالت رأسها قليلاً وقالت:

- أعتذر لتطفلي يا سيدي الكونت، لكنني مضطرة للتحدث إليك.

- عما بالضبط؟.

رفعت رأسها وتقدمت نحوه خطوات عدة: «عن أمر أحب أن أناقشه معك على انفراد».

- لدي اجتماع، كما ترين. . .

- لا يمكن لهذا الأمر أن ينتظر.

قالت هذا وقد شعرت بالسرور لبقاء صوتها ثابتاً وتملكها الارتياح عندما التفت ليتفحص سريعاً بعض المستندات الموجودة على المكتب أمامه قبل أن يقول بهدوء: «إن ترتيب موعد سيجعل كل شيء ممكناً».

لكن، عندما رفع نظره إليها ظهر في عينيه وهج حار مناقض للهجته المنطقية هذه. . ذلك التحدّي في نظراته شتت عزيمة كايت، فغاب لمعان عينيها الخضراوين المعتاد وغدتا جامدتين كشظايا البلور الخضراء.

- اتصلت بسكرتيرتك قبل أن أغادر إنكلترا لأخذ موعد لكنها قالت إن ما من مواعيد حتى آخر الشهر.

رفع الكونت رأسه ببطء يواجهها: «هل تركت اسمك يا آنسة؟».

لفظ الكلمة الأخيرة بتركيز متعمّد.. بهدف إثارتها وقد نجح، لأنها ردت عليه بحدة: «نعم... طبعاً».

أردفت: «حرصت على أن أطلب من سكرتيرتك أن تبلغك أن كايت فوستر اتصلت».

سرها أن ترى سحابة قصيرة تظلم وجه الكونت لأن أحد مستخدميه عرضة للّوم لسهو غير مقصود. لكنها تعلم أيضاً أنه أذكى من أن يدع استياءه يظهر أمام الآخرين.

- حسناً يا كايت فوستر، لا أستطيع أن أطلب من هؤلاء السادة أن يخرجوا من قاعة الاجتماع قبل أن أعرف ما الذي تريدين التحدث بشأنه.

وعندما اشتبكت أعينهما اكتفت برفع حاجبيها، لكن نظرها تحوّل إلى عضلة توترت في فكه... ومن ثم إلى فمه ليرتد عنه بسرعة، لكن ليس قبل أن ترى ابتسامة ذات معنى عليه.

أزعجها أن تعلم أنه لم يفقد قدرته على قراءة ردات فعلها.

- جئت لمناقشة موضوع «البيت الصغير».

استجاب الكونت لصلابة صوتها بنظرة مغناطيسية عنيفة قبل أن يلتفت إلى زملائه قائلاً: «المعذرة، أيها السادة.. سنعاود الاجتماع غداً في الساعة التاسعة صباحاً».

انتظرت بصمت وقد رفعت ذقنها تمرداً، بينما راح الرجال يمرون بها وكل واحد منهم يرمق باهتمام ساخر هذه المرأة التي قاطعت برنامج الكونت دي فيلينوف. وعندما أقفل الباب أخيراً قال لها: «هلا تفضلت بالجلوس؟».

نظرت كايت إلى الكرسيين المريحين المتقابلين أمام المدفأة الرخامية، ثم إلى

الرجل الواثق من نفسه أمامها.

- أفضّل أن أقف، إذا لم يكن لديك مانع.

- كما تشائين.

وكأنما أحس بعدم ارتياحها، فبقي حيث هو... بعيداً عن اللمس، لكنه قريب بما يكفي لكي تشم رائحته الممزوجة برائحة الفواكه الحمضية والبهارات.

- كايت... يا للماضي الجميل، هل نسيتني؟.

توهج وجهها وهي ترى نظراته الهازلة. كيف لها أن تنساه؟.

- هل عادت إليك الذكريات كلها الآن؟.

الحرارة التي داعبت أحاسيسها كانت برهاناً كافياً... ولكن ذلك الإحساس كان أيضاً بمثابة تحذير. فقالت بحزم: «لم أحضر إلى هنا لاستعادة ذكريات الماضي. اهتمامي الوحيد هو الحاضر فقط..».

- وكذلك أنا، ألن تتفضلي بالجلوس؟.

قال هذا بلطف وهو يستدير على عقبيه مبتعداً باتجاه مكتب خشبي وضع أمام نافذة مقنطرة مستطيلة الشكل، ثم وقف ممسكاً بكرسي مواجه لكرسيه الخاص المريح. كانت نظراته أشبه بحبل حريري يجرها عبر الغرفة كما فكرت وهي تقاوم دافعاً يدفعها إلى اللحاق به.

قال بلطف وكأنه يتعامل مع مهرة حسنة السلالة والتنشئة: «تعالي وأخبريني عما في ذهنك يا كايت، ومهما كانت مشكلتك، فأنا واثق من أن بإمكاني إيجاد حل».

أدركت، وهي تحاول تهدئة أنفاسها، أن حب السيطرة فيه يثير أعصابها فلطالما كانت صلابته وعدم مرونته تهزمانها..

- لا أظن أن الحديث سيحل هذه المشكلة.

www.elromancia.com

- هل لي أن أسألك عما يرضيك؟.

الجواب الصامت الذي خطر في ذهنها جعل عينيها تتسعان منذرتين؛ كان غاي دي فيلينوف في أواخر الثلاثينات من عمره وصورته تحتل غلاف مجلة «تايم» بانتظام ممل تقريباً. أما كايت فرغم كل نجاحها لم تتجاوز السادسة والعشرين وهي تكرّس حياتها لعملها. فلم يكن لديها وقت للعواطف.

تابع يقول بلهجة منطقية: «ما دمت هنا الآن، فلن يضيرك أن ترتاحي قليلاً. هل يمكنك أن تتركي مكانك عند ذلك الباب؟ أنا لا أعض».

ذكّرت نفسها بأن أكثر من عشر سنوات مرت، ولكن إذا ظن أن بإمكانه أن يوتّر أعصابها إلى حد تنسى معه سبب حضورها... سارت نحوه رافعة الرأس، ومشيتها الراقصة تكاد تخفي العرج الخفيف الناتج عن حادث كاد يقتلها، ثم قالت بجمود: «أرى أنّ من الأفضل أن تبدأ بشرح سبب إهمال «البيت الصغير» إلى هذا الحد».

جاء دور الكونت الآن لكي يقف جامداً وهو يراقب اقترابها منه، ثم تمتم شارد الذهن: «آه، هذا هو الأمر!».

- نعم، هذا هو الأمر. حسناً، كيف تفسر ذلك؟ فأنا أدفع النقود لمكتب مزرعة فيلينوف منذ ستة أشهر. والمبلغ الذي دفعته يكفي لإجراء أي صيانة ضرورية للكوخ، بحيث يمكنني القدوم إلى هنا واستلامه.

فقال برقة أسكتتها: «واأسفاه يا كايت، كل المستأجرين يعلمون أنني حالما أنهي اصلاح المزرعة سينتهي أمر الأكواخ الصيفية».

- حسناً، لم يخبرني أحد بذلك. وفي هذه الظروف، ألا ترى أنك تتصرّف بشيء من العجرفة؟.

عندما جلس قبالتها هز كتفيه العريضتين: «أعتذر لهذا السهو. عندما

توفيت عمتك، والسيدة برودبنت، لم أكن أعلم ما هي نيتها بالنسبة إلى «البيت الصغير». وما من سبب يدعوني إلى الاعتقاد بأنها تركت الكوخ لك. وفي غياب أيّ اتصال، كان علي أن أستخلص الافتراض الوحيد الممكن..».

- ما هو؟.

قاطعته كايت وهي تتساءل عما حدث لنبضها. لقد اعتادت أن تبقى هادئة عندما تظهر صعوبات مفاجئة في العمل فهذا سرّ قوتها، كما أخذت تذكّر نفسها.

وصلتها رسائل محامي العمة أليس أثناء فترة انشغالها بفتح مواقع لها على الإنترنت، وقد شملت تلك المواقع نواحٍ عدة في اليابان... فلم يكن لديها الوقت كي تتفحص المستندات القادمة من فرنسا كما ينبغي.

- استنتجت من ذلك أن ورثة السيدة برودبنت يريدون الاحتفاظ بالكوخ بحالة جيدة. وبما أن ذلك لا يتماشى مع خططي، طلبت من مدير أملاكي أن يعيد الأموال المدفوعة كلها. كما سأدفع مبلغاً سخياً إضافياً لأستعيد حق الملكية، كما حصل بالنسبة للأملاك الأخرى. بعض الأعمال المصرفية...

قاطعته كايت بحزم وهي ترفع شعرها بيدها النحيلة: «يمكنك أن تتوقف عند هذا الحدّ. أنا لا أريد نقودك، لكنني أريد المبلغ الذي دفعته لمكتب أملاك فيلينوف لصيانة الكوخ».

- لا يمكنني أن أفعل ذلك...

فسألته بعنف: «لا يمكنك أم لا تريد؟».

توقف قلبه عن الخفقان، لكن دفئاً خطراً بدا في عينيه وهو يميل نحوها عبر المكتب ويحدّق إليها قائلاً: «آه يا كايت، أنت دوماً متهورة للغاية...».

www.elromancia.com

- هذا ليس جواباً.

قالت هذا تحذره، وهي تحاول تجاهل تغضّن عينيه عند زاويتيهما والأهداب السوداء التي تعلو النظرات الفولاذية. كان تفحصه لها مربكاً للغاية، أما التأثير الذي تركه على حواسها فأسوأ بكثير... قالت: «إذن، أنت لم تجرِ أي اصلاحات في الكوخ. حسناً، أعد إليّ النقود وأنا أصلح الأمور بنفسي».

أدهشها استسلامه السريع حين قال موافقاً: «لا بأس، سأحوّل النقود التي دفعتها إلى حسابك في المصرف غداً صباحاً. لكن ملكية الكوخ تعود إليّ».

فقالت وهي تقف: «هل هذا ابتزاز؟».

عندئذٍ ضرب المكتب بقبضته: «هذه مبالغة!».

إلاّ أنه تمالك نفسه بسرعة ثم وقف والتأنيب بادٍ في ملامحه: «أفضّل أن تسمي هذا ترتيباً ودياً».

- بل هو ترتيب من جانب واحد، وليس ودياً ما دمت لا أريد أي جزء منه.

- قد تغيرين رأيك عندما تسمعين ما سأقوله.

راحت خفقات قلبها تخرج عن السيطرة، لكنها قالت بهدوء: «أشك في ذلك».

- إذن، لن تصغي إلى عرضي.

عندما وقف مشرفاً عليها، تطاولت هي بقامتها ومع ذلك بقي يفوقها طولاً... بدا في عينيه لمعان يدلّ على أنه يسخر من قصر قامتها أمامه، فتملكها الغضب: «لا تعاملني باستعلاء، يا غاي. أنا امرأة ناضجة الآن، وأدير عملاً خاصاً بي».

فقال بلطف: «ظننتك نسيت كيف تنطقين اسمي».

جاء صوته غامضاً مغرياً، كما أدركت وهي تجاهد لإبقاء ذهنها مركزاً على هدف زيارتها. لعلها نبرة صوته أو طبقته... شعور بدائي أخذ يداعب حواسها بتواتر رتيب. إذا كانت السنوات الماضية قد أقنعتها بأنها منيعة إزاء الاغراء، فإن غاي، الكونت دي فيلينوف أثبت لها لتوّه خطأها. وقد عرف هو ذلك كما أدركت عندما تشابكت نظراتهما. فقالت تحذره وهي تتمالك نفسها بسرعة: «لا تغيّر الموضوع. أنت تعرف سبب وجودي هنا، وهو ليس رحلة إلى عالم الذكريات».

تعلقت أعينهما ببعضها البعض لحظات ثم رفع حاجبيه قليلاً وقال: «أظن أن علينا نحن الإثنين، وضع أوراقنا على الطاولة».

- لن أغير رأيي.

- كما تشائين. ولكن مهما كان ما ستقولينه، فتكلمي باختصار، لأنني مشغول جداً.

ألقى عليها نظرة أقل تسامحاً، ولاحظت كايت أنه يضغط بيده بقوة على قبضة سكين فتح الرسائل. حركته هذه تناقضت بقوة مع وجهه القوي الحذر، ما أرغمها على أن تتساءل إذا كانت تثير فيه من الاضطراب ما يثيره هو فيها. بدا أنه على وشك أن يفقد صبره معها مرة أخرى، إذ ألحّ عليها قائلاً: «حسناً، أتنوين الانضمام إليّ أم أنك تفضلين البقاء في مكانك والتحديق إليّ؟».

كانت الخشونة في صوته أكثر إغراء من اللطف، كما أدركت وهي تقترب لتجلس على حافة الكرسي. سوّت تنورتها الموسلين الفيروزية اللون حول ساقيها اللتين اسمرّتا من الشمس، ورأته يسحب ملفاً من كومة مرتبة أمامه.

قبل عشر سنوات كانت كايت مراهقة خرقاء مفتونة بحب أرستقراطي

www.elromancia.com

فرنسي. وها هي اليوم تجلس أمام الرجل نفسه كسيدة أعمال، وذلك بفضل نجاح عملها في تنظيم رحلات السفر بواسطة الإنترنت. ولكن ما نفع ذلك وقلبها يخفق بسرعة تكاد لا تسمح لها بالتنفس؟ شعرت بصدمة حقيقية حين اكتشفت أن الكونت ما زال بإمكانه أن يثير فيها هذه المشاعر المعقدة.

- هل أنت جاهزة، يا كايت؟.

عادت تركّز انتباهها على الفور وقد ضايقها هذا السهو. لقد جاءت إلى هنا لحل مشكلتها مع هذا الرجل وليس لتكوّن رأياً عن مدى جاذبيته. وعندما أخذت أصابعها تتفحص أزرار بلوزتها، لعنت نفسها لأنها لم تلبس إحدى بذلاتها الأنيقة. غضبها عندما رأت حالة الكوخ جعلها تتصرف من دون تفكير فاستقلت سيارة الجيب المستأجرة لكي تتحدى الأسد في عرينه. لكن الثوب الذي كان مقبولاً تماماً في الريف الفرنسي الدافىء المعطّر أصبح فجأة، مخجلاً عندما وجدت نفسها في مواجهة رجل مثل الكونت.

تملكها الارتباك حين راحت عيناه الذكيتان تلقيان عليها نظرات استفهام قاسية، ثم انتقلت نظراته بسرعة إلى كتفيها العاريتين اللتين لوّحتهما الشمس.

تذكرت أن تنورتها الرقيقة شفافة، فلفتها حول ساقيها.

وصل إليها الصوت المنخفض عبر المكتب رغم اعتقادها أن انتباهه مركّز على المستندات أمامه: «انتبهي... من المؤسف أن تتلفي هذه التنورة الجميلة».

ربما بدا هذا الكلام بريئاً لمن لا يعرف الكونت، لكن كايت تعرفه بما يكفي لكي تدرك أن حواسه مرهفة بحيث لا تغفل شيئاً... لا شيء على الإطلاق. وتمتم قبل أن يرفع بصره إليها: «هذا جميل جداً. هذه هي شخصيتك تماماً».

حيّرتها ملاحظته هذه للحظة، ثم أدركت عندما عاودتها ذكريات

طفولتها، أن الكونت سيرى فيها دوماً تلك الطفلة الصغيرة التي اعتادت أن تزور مزرعة أسرته حين تأتي لتمضي عطلاتها المدرسية في كوخ عمتها. الثوب الذي ترتديه الآن مماثل للملابس التي اعتادت عمتها أن تشتريها لها، وتضعها بأناقة على السرير الفرنسي المرتفع الذي تستخدمه كايت طوال مدة إقامتها.

فجأة، قال غاي: «ليس لدي النهار بطوله، كايت».

وفكرت هي بضيق أن هذا صحيح، فنبرة التساهل في صوته بدت واضحة. إنه يفكر فيها بصفتها تلك الفتاة الصغيرة، وهي التي جلبت ذلك لنفسها.

- كايت؟ آسف يا كايت، لكن عليّ حقاً أن ألحّ...

بدا صوته هذه المرة أكثر حدة...

عرفت أنّ عليها إما أن تجاري مزاجه وإما أن تستسلم. وأخيراً قالت: «لن أعيد إليك الكوخ، فأنا سأعيش فيه».

لم يعكس وجه الكونت أي تعبير وهو يتناول ملفاً من أمامه. فقالت: «حسناً؟ أليس لديك ما تقوله؟».

أجاب وهو يخرج من الملف بعض المستندات ويضعها أمامها: «هناك أمور تتعلق بالبيت الصغير.. أظن أن عليّ شرحها لك».

فقالت وهي تنظر إليه بحزم: «قبل أن أنظر إلى هذه الأوراق، أحب أن أعلم ما الذي حدث للمال الذي كنت أدفعه لمكتبك العقاري، لا تقل لي إنّ ما من سجل...».

وسكتت. شيء ما في وجهه حذرها من أن الوقت ليس مناسباً للاستعلاء. قال يطمئنها: «لديّ علم بكل ما دُفع للبيت الصغير. لكن محاضر الجلسات هذه لا تظهر سوى اسم شركة».

www.elromancia.com

ثم ناولها ورقتين أخريين.

تقلصت معدة كايت. كيف يمكن لغاي دي فيلينوف أن يعلم أن شركة «الإجازات الحرة» هي شركتها؟ لكن ذلك لا يبرّر قضية الكوخ. عندما شعرت بنظراته تستقر عليها، تظاهرت بالاهتمام بالفواتير... لكن هالة الجاذبية التي تحيط به راحت تغزو حواسها، فامتلأ عقلها بصور عاطفية لا علاقة لها بسبب زيارتها.

- ما دامت كل هذه الدفعات منتظمة، كيف تفسر إهمال الكوخ؟.

وألقت بالفواتير على المكتب لكي تتجنب النظر إليه، فقال:

- عقود الإيجار القديمة هي نفسها لـ «البيت الصغير» وللأكواخ الأخرى في المزرعة. وبناء على ذلك، أنا لست بحاجة إلى أن أشرح تصرفاتي. لقد قرّرت أن...

وثارت غضباً رغم أن المنطق حدثها بأنه يتصرف بشكل محترم: «هل قررت بمفردك؟».

- بالتأكيد.

- إذن، أليس لأحد حق ما عداك؟.

ازداد انفعالها حين اكتفى بهز كتفيه: «ومن سواي يملك كل تلك الأراضي بأكواخها يا كايت؟».

- أنت...

ووجدت نفسها مشتتة الذهن، وهي تتساءل عما جعلها تغفل هذه الحقيقة الواضحة من قبل. ولماذا اختارت أن تتجاهل حقيقة أن غاي دي فيلينوف جارها؟ والآن تبيّن أنه المالك، كما يبدو.

قال وهو يسند ذقنه إلى يده: «هذا صحيح».

أدركت أنه ينتظر رد فعلها بعد أن علمت أنه يملك كل الأوراق. حسناً،

قد تضعف نظرته تلك نساء أخريات... قالت وهي تواجه نظراته الثابتة: «لم أجد بين أوراق عمتي ما يثبت أنها كانت تدفع إيجاراً، وقد تفحصت مستنداتها كلها».

- ما عدا أوراق ملكية الكوخ، كما أظن.

عندما رأت عينيه تتحولان من اللون الفضي إلى لون الفولاذ، سارعت تتمالك مشاعرها: «حسناً، نعم... لقد تركت ذلك للمحامي، فقال لي...».

وسكتت. كان السيد جونس قد بذل جهده وهو يشرح لها أن قانون الأملاك المتعلق بالأراضي القديمة في فرنسا يمكن أن يكون حقل ألغام. وطلب منها موعداً ليناقشا الأمر، لكنها كانت مشغولة للغاية فلم تجتمع به.. كانت مشغولة للغاية بالتخطيط... لمغامرتها الجديدة.

وكأنما اشتم الكونت رائحة نصر ما، فجمد في مكانه وكأنه قطة برّية تهم بالانقضاض: «عدم ذكر محاميك لهذا الأمر هو إهمال منه..».

قاطعته كايت مكرهة: «لا، اللوم يقع عليّ. لقد أراد المحامي أن يناقش المسألة معي بالتفصيل، ولم يكن لدي وقت..».

فقال بدهاء وكأنه يلومها لتأجيل ذلك: «آه... أثمة شيء آخر؟».

- نعم، لم تفسر لي لماذا لا يوجد إيصالات بما دفعته العمة. أليس من إيجار...

فقال الكونت بهدوء: «لم يطلب أحد نقوداً من السيدة برودبنت. فبما أنها كانت إحدى أخلص صديقات أمي، لم يكن مناسباً أبداً أخذ إيجار».

- ولماذا لم يزعجكم قبول نقودي؟.

- نقودك ستعود إليك مع فوائدها.

- لكنني لا أريد استعادتها، أريد أن تُنفق على إصلاح الكوخ.

www.elromancia.com

- هذا مستحيل لأني لن أترك بعد الآن كوخاً مستقلاً في أملاكي.

- ما الذي تتحدث عنه؟.

وقف بقامته الرائعة وقال بصوت يدل على أن اجتماعهما انتهى: «ستجدين ما أعرضه سخياً، يمكنني أن أؤكد لك أن أي شخص آخر سيكون راضياً للغاية...».

- آه، حقاً؟.

فقال بصوت جاف بينما لانت نظراته الفولاذية: «نعم، حقاً. هيا يا كاتي، ما حاجتك إلى بيت آخر في فرنسا وأنت مشغولة إلى هذا الحد...؟».

فقالت غاضبة وقد أفزعها أن تسمع صوتها يتهدج: «اسمي كايت وليس كاتي».

- كايت إذن، ولكن مهما كان الشكل الذي تفضلينه لاسمك، أنت لم تجيبي عن سؤالي.

من سيدة أعمال هادئة منضبطة، وجدت كايت نفسها تتحول إلى امرأة أخرى تتصرف بانفعال واضطراب لم تستطع التحكم بهما فقفزت لتواجهه: «حسناً، هوذا شخص يعارضك. هل تحاول أن تخبرني أن الجميع قبلوا الصفقة؟».

- أنا لا أحاول أن أخبرك شيئاً، يا كايت. ما أقوله هو أمر واقع. كما أنني لا أقدم صفقة لأي كان بل أقدم عرضاً عادلاً.

للحظة بقيت كايت عاجزة عن الكلام، بينما أخذت الصور المهشمة لإجازات طفولتها السعيدة تتدافع في ذاكرتها... إجازات تصورت بسذاجة أن بإمكانها إحياءها من جديد. قالت بعناد: «لا أصدّق ذلك».

فردّ عليها بثبات: «بل صدّقي، لقد ولّت أيام بيوت الإجازات في مزارع فيلينوف».

- ولكن ماذا عن المستأجرين الآخرين... أقاربهم... أصدقائهم...؟ ألا يهمك أمرهم على الإطلاق؟.

قالت هذا بحرارة وهي تتصوّر عدد الأشخاص الذين اعتادوا أن يقضوا إجازاتهم في المزارع كل عام.

- الناس الذين تتكلمين عنهم سيستعملون الأكواخ كبيوت ثانوية... بيوت للإجازات. وقد سرّوا جميعاً من دون استثناء لهذه الصفقة.

- حسناً أنا لست مسرورة.

- لكنك لم تسمعي تفاصيل الصفقة بعد؟.

- ولست بحاجة إلى ذلك.

عندئذٍ، قال بحزم: «عليك أن تصغي إلى ما أقوله يا كايت. أصبحت المزرعة مخصصة للعمل الآن ولم تعد مخيّماً لقضاء الإجازات».

فردّت عليه ثائرة: «لم تكن قط للإجازات. وأنا أتذكر حين كانت أسرتك تستقبل الزوّار فيها».

ومع ذلك خبت حرارة هجومها إذ لم يكن لديها ما تكافح من أجله، لقد فات الأوان.

وفجأة، قال بلطف: «ربما كان هذا صحيحاً في حياة أبي، لكن مزارع فيلينوف تنتج مبالغ كبيرة من المال الآن، إذ أن كروم العنب ستصبح أخيراً أحد أهم موارد الإنتاج في العالم».

تمتمت وهي تبتعد: «المال! هل الربح والخسارة هو كل ما يهمك الآن؟».

واستدارت بغضب تواجهه مرة أخرى. إلا أنها حوّلت عينيها عنه عندما رأت زاويتي فمه تلتويان بابتسامة أسف. وأخيراً قال: «آسف لشعورك هذا يا كايت. أنا أعلم أن المال ليس كل شيء. ولكن هل كنت تفضلين أن تفلس

www.elromancia.com

المزارع، وتشتت الأسر التي عاشت في القرية أجيالاً في أنحاء الدنيا؟ لقد صممت على ألا أخذل أولئك الذين يعتمدون عليّ في معيشتهم».

وعندما لم تجب وقد بدا عليها التفهم، أضاف بلطف: «ظني بي ما تشائين يا كايت. لكن الحقيقة هي أن الزمن تغيّر وكذلك أنا. ولا بد أنك أنت..».

- لا!.

انفجرت بهذه الكلمة غاضبة وقد راودتها فكرة أثارت فيها خوفاً بالغاً... إذا تركت فرنسا الآن فسوف تخسر آمالها وأحلامها.

- خذ ايجار الأرض التعيسة، ولعشر سنوات مقدماً إذا شئت. أنا لا أنوي التخلي عن عقد الإيجار الآن، عليك فقط أن تدير أعمالك مستثنياً منها ذلك الكوخ.

فقال مفكراً: «يمكن ترتيب ذلك».

أدركت والغضب يكاد يعميها أنه أمسك بكل سهم قذفته به وأرسل إليها بدلاً منه قوس قزح. يبدو أن ما من شيء تغير بينهما ومن الواضح أنه لن يأخذها على محمل الجد ما لم...

- وهكذا، ستدير أنت أعمالك، بينما أتابع أنا أعمالي من الكوخ؟.

رأت حاجبه يرتفع بدهشة خفيفة، فتوقعت أن يكون ردّه انفجاراً عنيفاً. إلاّ أنه سألها بنعومة: «أعمالك؟».

- هذا ما قلته.

- لا أتصور أنك تنوين فتح أحد مكاتب السفريات عبر الإنترنت في قلب الريف الفرنسي. من أين ستحصلين على زبائنك؟ هذا عدا عن موظفيك؟.

- أنا الموظفة الوحيدة الضرورية...

أدركت أنها أصابت الهدف أخيراً، وسرها رؤية حاجبه يرتفع بحيرة وهو يقول: «أحقاً؟».

وقطب حاجبيه، فقالت: «لن يكون هذا مثل المواقع الأخرى».

- أوضحي ما تعنينه.

بدا بالغ الرقة، وخشيت أن يشتت أفكارها برقته، فعادت إلى الهجوم: «لا يمكنني إفشاء المزيد من المعلومات الآن».

قالت هذه مستمتعة لأنها هزمته هذه المرة: «سأنتظر رجالك غداً ليتزعوا الألواح عن نوافذي، وليعتنوا بالحديقة ويعيدوا الخدمات الرئيسية».

- رباه، أهذا كل شيء؟.

فقالت تحذره: «أنا لا أمزح يا غاي، لقد دفعت مبالغ جيدة لصيانة «البيت الصغير» وأريد أن أرى النتيجة. المكان تعمه الفوضى... وكنت أظن أنني أدفع...».

- ظننت أنني أوضحت لك الأمر، ما من بيوت لقضاء الإجازات في مزرعة فيلينوف.

- وأنا ظننت أنني أوضحت لك الأمر أيضاً؛ «البيت الصغير» لن يكون بيتاً لقضاء الإجازات وهو ليس للبيع لك أو لغيرك.

وبدلاً من أن يسكته هذا التحدي، زادت حدّة نظراته وظهر فيها لمعان ينبيء بالخطر. أرجع رأسه إلى الخلف وأطلق ضحكة قصيرة: «ما زلت نارية الطباع وسريعة الغضب يا صغيرتي. أليس كذلك يا كاتي فوستر؟».

لهجته المتملكة المسيطرة أطلقت في صدرها موجة عارمة من الشوق... موجة سرعان ما انتشرت في جسدها كلها ما جعلها تشهق وتحمرّ خجلاً وهي تستدير نحوه غريزياً.

تابع وقد بدا أنه يستمتع بالموقف: «أرى أن ما شيء تغير منذ آخر لقاء

www.elromancia.com

بيتنا».

بدت غطرسته فظيعة لكنها نجحت في تنبيهها فقالت بتوتر: «بل إن الكثير تغير أثناء السنوات العشر هذه، خصوصاً قدرتي على القتال دفاعاً عن حقي».

- رائع! فأنا أعشق القتال.

تحديقه إليها أرسل موجة ساخنة في جسدها، فتسمّرت مكانها تنظر إليه وهو يرخي ربطة عنقه، ثم يفك زرين في أعلى قميصه الأبيض. قال وهو ينظر إليها بعينيه الرماديتين العاصفتين: «أرى بعض التغير، لكنه نحو الأفضل».

حاولت أن تحوّل نظراتها عن أصابعه التي تداعب شعيرات لحيته النامية الحالكة السواد، لكنها لم تستطع. وعندما تقدم نحوها خطوة، هتفت تحذره: «قف، لقد أخطأت منذ عشر سنوات وما زلت مخطئاً الآن».

ورأت عينيه تلمعان للذكرى: «منذ عشر سنوات كان ثمة عذر لتصرفك».

قال هذا برزانة وقد لوى شفتيه سروراً وهو يرى سهولة ذوبانها بفعل لهجته القوية النافذة، ثم تابع من دون لين: «كنت في السادسة عشرة، وإذا كانت ذاكرتي جيدة، فأنت من أخطأ وليس أنا».

عندما نطق بكلماته هذه، وهو يتنهد بأسف ساخر، خفت حدة نبضها، وقالت لاهثة مجاهدة للحفاظ على ثبات صوتها علّها لا تفضح مشاعرها: «هل غلطتي أنني تصورتك سيداً مهذباً؟».

فأجاب غير مبالٍ بالإهانة: «بل تصوّرت أنني سأنتهز الفرصة بينما أنت مجرد طفلة».

رمقها بنظرة تسلية وكأنه يؤكد أنها لم تعد كذلك.

- ما كان عليك أن...

فقاطعها: «ما كان علي أن... ماذا؟ أن ألقيك على كتفي وأعيدك بسلام إلى أحضان السيدة برودبنت الآمنة؟».

- كانت فعلاً أكثر أماناً من أحضانك.

لم تكن مستعدة لفورة المشاعر العنيفة التي أثارتها تلك الملاحظة اللامبالية. ذكرى تلك المحاولة الخرقاء للتحرش به لم تكن وحدها المسؤولة عن الاحمرار الذي اندفع إلى وجنتيها، إنما ذكرى وجوه أصدقائه عندما حملها غاي بين ذراعيه وابتعد بها عن الحفلة عائداً بها إلى كوخ عمتها. قال لها: «سأنسى ذلك إذا شئت. هل نبدأ الآن من الصفر؟».

- لا سبيل إلى ذلك.

هبّت في وجهه وهي تحاول أن تصفي ذهنها. لم تكن تتوقع منه أن يتحرك على الإطلاق... فكيف إذا تحرك بهذه السرعة؟ وشهقت حين أمسك ذراعيها بقبضته القوية الدافئة.

أما هو فتمتم يقول: «ما زلت أرى في عينيك شوق المهرة إلى سيد يروضها».

قاومت مشاعرها، فسمّرت نظراتها على لوحة زيتية تمثّل سفينة شراعية ضخمة، وطلبت من الله ألا تخذلها ركبتاها. سمعته ينطق بكلمات الاستحسان من مكان عميق في حلقه. وعندما تركها فجأة استطاعت أن تقول: «أنا لست من جيادك التي تستخدمها في رياضة البولو. إياك أن تجرؤ على التحدث إليّ بهذا الشكل».

- بل سأتحدث إليك بالطريقة التي تعجبني، وأنا أجرؤ... لأنني أظن أن ثمة ما يستحق اللعب لأجله.

راح يراقبها وهي ترتجف.

- هذه ليست لعبة.

شهقت كايت بذلك عندما اشتدت قبضته على ذراعيها مرة أخرى. لا جدوى من أن تقارن قوتها بقوته، فقد أصبح الكونت أقوى وأطول مما كان عليه في آخر لقاء بينهما... وجذاباً بشكل لا يصدّق. عضّت على شفتيها بغضب وقد استعادت تركيزها بسرعة. لانت بين ذراعيه لفترة قصيرة وخففت من عنف هجومها، وعندما أطلقها عادت إلى شخصيتها العملية وقالت بهدوء: «لا بأس، لعلك محق. ربما علينا أن نبدأ من جديد».

سرّ الكونت لهذا التحول الظاهر، فلوى فمه مفكراً، ثم قال وهو ينظر إليها بإمعان: «من الأفضل أن تخبريني بما يدور في ذهنك».

٢. كوخ الذكريات

عندما خرجت كايت من القصر، كانت تشعر بصدمة لم تعرف مثلها من قبل ومع ذلك شعرت أيضاً بأنها حققت انتصاراً جزئياً على الأقل.

أزيز الإثارة الذي يرافق دوماً الصفقات المكتسبة بصعوبة، كان يعزف على كل وتر من أوتار جسدها. لكن، هل كانت تلك صفقة أم شيئاً آخر؟ مع أن ذهنها كان مشغولاً بالتخطيط لمغامرتها الجديدة، إلا أنها لن تستطيع تجاهل حقيقة أن رؤيتها لغاي دي فيلينوف مرة أخرى هزتها بعنف.

وقفت ويدها على مقبض باب سيارة الجيب المستأجرة.. لقد سار الاجتماع بشكل أفضل مما توقعت فقد وافق غاي على أن يرسل رجاله لكي يزيلوا ما بقي من ألواح خشبية تغطي نوافذها، وينزعوا النباتات الطفيلية والأشواك من الحديقة. كما أنه سيتولى أمر إعادة توصيل أنابيب الخدمات إليها، رغم أن هذا قد يأخذ بعض الوقت تبعاً لأهواء الروتين العمالي المحلي. ومع أنه تقبّل رفضها إعادة عقد الإيجار له لأنها تنوي العيش في الكوخ، إلا أنّ جزءاً من كيانها اهتز بشكل سيء في الواقع. إذ لم يحدث لها من قبل أن خرجت من اجتماع عمل والمشاعر تحرقها. وآخر ما تريده هو أن تلتهي بأمور تجعلها تصرف النظر عن حفلة الرقص على ضوء الشموع، التي ستقيمها حين سيصل أول ضيوفها.. بعد أقل من ثلاثة أسابيع.

لا... لم تكن صادقة تماماً مع الكونت، لكن اكتشاف غاي أنها تنوي أن تعيش في الكوخ كان صدمة كافية لهذا النهار. فإذا علم أنها تنوي تحويل

www.elromancia.com

ذلك المسكن بمشاهده الرائعة إلى بيت تؤجره للخاصة من الناس لقضاء عطلاتهم!.. أغمضت كايت عينيها وهي تستعيد ذكرى ثوراته الغاضبة العنيفة، ثم زمّت شفتيها بحزم. حالياً، بالنسبة إلى غاي دي فيلينوف، التجاهل هو أفضل سلاح.

كان منزل العمة أليس فاتناً، فملأ كيانها شعور زائف بالأمن والاستقرار، كما أخذت كايت تفكر وهي تقف تحت القنطرة المزينة بالورود والمؤدية إلى الممر المرصوف بقطع الخشب. شعورها بالبهجة وهي تتلقى الحجوزات الأولى للكوخ منعها من التفكير في إمكانية أن تتدهور الأمور بهذه السرعة. ولكن هنا في «حديقة فرنسا» التي تبعد ألف ميل إلى الجنوب من مكان إقامتها في إنكلترا، كل شيء يحدث بسرعة.

فتحت الباب على اتساعه متوقعة أن تجد أن شيئاً لم يتغير منذ آخر زيارة لها. من يصدّق أن ذلك اليوم الحافل بالضحك والراحة مرّ منذ ستة أشهر فقط؟ لم يكن هناك دلائل تشير إلى عاصفة قريبة، ولم يكن الكونت دي فيلنوف حاضراً ليعكّر صفو المياه، إذ لم يكن قد عاد إلى بلده واستلم إرثه. لكن كل شيء تغير منذ حادث اصطدام السيارة الذي قتلت فيه عمتها ووالد غاي. وكلما أسرعت في تقبل تلك الحقيقة كلما كان ذلك أفضل.

عندما أغلقت الباب خلفها استسلمت إلى شعور بالغ بالخسارة. وقفت لحظة مستندة بظهرها إلى الباب المصنوع من خشب السنديان، وقد أغمضت عينيها وذهنها عن هذا التغيير.

تدنيس قداسة الكوخ لم يكن ليقارن بهذا الفراغ في قلبها، الذي اعتادت أن تملأه امرأة عجوز ذات عينين زرقاوين حادتين مليئتين بالحماسة. لكن مجرد التفكير في عمتها كان كافياً لأن تستعيد روحها المعنوية التي لا تهزم وتجفف الدموع في عينيها، وأخذت تتفحص ما بقي من «البيت الصغير»، وتتأمل ممتلكاتها الجديدة.

كانت قد نزعت الألواح الخشبية عن اثنتين من النوافذ الأمامية، فشعرت وكأنهما عينان ودودتان تغمزانها من ذلك الجدار الأبيض، وتملكتها موجة من الزهو والعطف وكأن «البيت الصغير» طفل يوشك أن يدخل مرحلة جديدة من حياته.

استدارت حول زاوية المبنى حيث تركت الأدوات التي تحتاجها لكي تنزع بقية الألواح الخشبية. ربما سيرسل الكونت رجاله غداً ليساعدوها، لكنها لا تستطيع الانتظار حتى ذلك الحين. بدا الباب الخلفي أشبه بأبواب الإصطبلات، وقد وضع بجانبه صندوق خشبي مستطيل في داخله عدّة. أخذتها وراحت تحاول أن تنزع قطعة خشب عنيدة مسمّرة على نافذة مطبخها، لكنها ما لبثت أن صرخت غاضبة عندما انزلق مفك البراغي عن الخشبة لينغرز في راحة يدها.

كانت لا تزال تقفز من شدة الألم وهي تشتم بصوت مرتفع عندما سمعت صوت حوافر حصان على الممر قرب الحديقة الأمامية.

- آه، لا... إنهم ليسوا زواراً!

قالت هذا متذمرة وهي تمتص موضع الإصابة في يدها. وعندما رأت الحصان وفارسه سارعت إلى وضع يدها المصابة وراء ظهرها: «غاي، ما الذي جاء بك؟».

جاء صوتها مزيجاً من الدهشة والارتباك لعدم استعدادها لاستقبال سيد الأملاك. فأجاب وهو يقفز إلى الأرض: «أردت أن أرى الكوخ بنفسي. ماذا تفعلين؟».

نظرت إليه بحذر وهو يخلع قفّازي الركوب ويدسهما في جيب سرج الحصان. لم ينخدع لحظة بتظاهرها بالعمل، ثم تقدم نحوها بخطوات واسعة ليمسك بيدها ويتفحصها. قالت وهي تحاول أن تجذب يدها من يده: «لا شيء، أنا بألف خير».

- لا تتحركي، فقد جرحت يدك.

وأجفلت وهو يضغط على موضع الإصابة كي يتفحصها.

- هل لديك دواء مطهر في الكوخ؟.

كانت العمة أليس قد وضعت في الحمام كل معدات الإسعافات الأولية لكن كايت لم تستطع أن تتصور الكونت وهو يسير في أنحاء غرفة النوم منتعلاً جزمة الركوب السوداء التي تصل إلى ركبتيه، قالت: «كلا».

- أليس لديك صندوق إسعافات أولية؟.

- كنت من الانشغال بالتصليحات هنا بحيث لم أهتم بشأن...

- بشأن سلامتك؟.

- غاي أنا...

فقال بغضب وهو يمسكها بقوة بعد أن حاولت أن تتملص منه: «ماذا؟ ماذا تحبين أن تقولي لي، يا كايت؟».

جاء صوته عنيفاً على نحو لم تسمعه من قبل، وآلمتها يدها بشدة. رؤيتها لغضبه الواضح بينما هي من يحق لها أن يغضب، جعلتها تشعر بالسخط بحيث كادت تفقد كل تعقل: «إياك أن تجرؤ على الصياح في وجهي».

وضربته على صدره بيدها السليمة. لكنه بدلاً من أن يجيبها بصراخ مماثل، راح يضحك وهو يمسك بذراعها ليضمها إليه بقوة جعلت رأسها يرتطم بصدره. دقات قلبه المنتظمة التي ملأت أذنيها، والرائحة المنعشة لعطر ما بعد الحلاقة، ودفء الرجل الصلب هذا... ذلك كله كان له تأثير مهدىء على ذهنها الثائر. تمتم وهو يمرر يده على شعرها: «هل تشعرين بتحسّن؟».

رغم اضطرابها وانزعاجها أومأت برأسها قائلة: «إنها تؤلمني».

عندما ضمّها بين ذراعيه تملكها الشوق نفسه الذي كان سبب تعاسة سنوات مراهقتها، وكأنه يذكرها بالفجوة العميقة التي تقوم بينهما. ما يفرق

بينهما ليس السنوات الاثنتي عشرة التي تمثل فرق العمر بينهما، بل تجارب الكونت الكثيرة، فضلاً عن سنوات الفراق الطويلة. أدركت كايت أن ما يفرق بينهما كبير للغاية؛ إنهما راشدان الآن ولكل منهما حياته الخاصة، وعاجلاً أم آجلاً، سيكتشف غاي أنها خدعته.

تركها بعد دقيقتين وسألها: «هل أنت واثقة من أن ليس في الكوخ ما يمكن أن نداويك به؟».

كاد قلبها يتوقف عن الخفقان وهي تفكر في كيفية منعه من دخول الكوخ من دون أن تجرحه. لم تكن مستعدة لاستقبال الزائرين الآن وخصوصاً غاي، قبل أن ينتهي تنظيف الكوخ وترتيبه من الداخل.

- لقد ألقيت بكل شيء في الخارج.

وفتحت ذراعيها متصنّعة الندم والعجز: «لا تقلق، سأذهب إلى صيدلية القرية».

بدا غير مقتنع بكلامها وقال: «سآخذك بنفسي».

- لا، لا تكن غبياً.. أنا...

لكنه لم يترك معصمها، وكانا قد أصبحا في منتصف الفناء عندما أدركت ما يحدث. رفعها ووضعها فوق صهوة حصانه ثم جلس خلفها واضعاً ذراعه الطليقة حول خصرها. قال: «لا تقلقي، سأسير بهدوء».

ثم حثّ الحصان كي يسير برفق. لم تركب كايت حصاناً منذ طفولتها، لكن ذلك لم يخفها بقدر لمسة ذراعه الدافئة حولها. حاولت أن تضع مسافة بينهما لكن من دون فائدة إذ راح يجذبها إليه، ثم تمتم قرب أذنها ما جعلها تجفل بشكل لا إرادي: «استرخي، فقد جعلت الحصان متوتراً».

إحساس الحصان كان آخر ما تفكر فيه، لكن وقع حوافره أحدثت تأثيراً جيداً في أعصابها المضطربة، وسرعان ما وجدت نفسها تتمايل بسهولة

متناغمة مع وقعها. حلّ الارتياح مكان تصلّبها السابق فيما أخذت تقنع نفسها بأن الوضع طبيعي...

- إلى أين نحن ذاهبان يا غاي؟.

فأجاب بغير اهتمام: «إلى الصيدلية.. أو إلى القصر، الخيار لك».

فقالت بسرعة: «الصيدلية».

- كما تشائين.

أجابها باتزان وهو ينعطف بالحصان نحو اليمين بينما تابعت: «يمكن للصيدلي، على الأقل، أن يلقي نظرة على الإصابة».

كان السيد ديبونت رجلاً قصيراً نحيل الجسم لكنه قوي البنية وذو ابتسامة شيطانية. وعندما رأى زائرين قادمين، أومأ قليلاً لكي يجذب انتباههما إلى الصف المتراص من الزبائن المنتظرين. ساد الصمت عندما التفت الجميع لينظروا إلى القادمين الجديدين وقال الصيدلي من دون إبطاء: «ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك يا سيدي الكونت؟».

فقال غاي مصراً: «أنهِ عملك أولاً، فالحالة لم تعد طارئة».

ونظر إلى كايت مستفهماً، فهمست بخجل: «أنا بحالة جيدة فعلاً، يمكنني أن أشتري محلولاً مطهراً ورباطاً من السوبرماركت».

صرخ الصيدلي مذعوراً: «من السوبرماركت؟ يا لها من فكرة! فليفسح الجميع الطريق للسيدة الشابة».

وعندما قادها غاي إلى منضدة البيع، قالت: «لا ضرورة لذلك، صدقني».

- اسمعي كلامه فهو يريد أن يساعدك.

همس غاي بذلك غير واعٍ إلى أن أنفاسه الحارة جعلتها تقشعرّ. وعندما شعرت بأنها أصبحت محور الاهتمام، تظاهرت بالشجاعة وتقدمت إلى

الأمام. لاقاها الصيدلي في منتصف الطريق قائلاً: «والآن، أريني يدك يا آنسة».

وقبل أن تستطيع منعه، أمسك غاي ذراعها وأبرز يدها للصيدلي ليفحصها. وعندما حدّق هذا الأخير إلى يدها، قال: «حالتها سيئة».

ثم وجّه كلامه إلى الكونت هامساً: «أمسك بها بثبات ريثما أغسل الجرح، لئلا تبعد يدها عندما تشعر بالألم».

فأجابه فوراً: «لا تخف، لن أدعها تفعل ذلك».

راح قلب كايت يخفق بجنون، لكن السبب لا علاقة له بالجرح أو بتفحّص كل من في الصيدلية له... وأخيراً أخذ الصيدلي يلف الرباط حتى أصبحت يدها كالمومياء المصرية، ثم قال للكونت: «يمكنك الآن أن تتركها، فقد انتهى الجزء السيء من العملية».

لكنه كان مخطئاً هذه المرة، كما خطر لكايت عندما تركها الكونت. فما انتهى، بالنسبة إليها، هو الجزء السار. كانت واعية إلى أنه يراقبها وهو يقف مستنداً إلى الجدار، شابكاً ذراعيه على صدره باسترخاء. أخيراً، قال الصيدلي: «ها قد انتهينا، والضماد أنيق تماماً، إذا جاز لي أن أمدح نفسي».

فقال الكونت وهو يتقدم نحوه: «عمل أنيق وبارع تماماً. كم تريد مني؟».

- أريد منك...

شعرت أن النسوة في الصيدلية أجفلن وملن إلى الأمام قليلاً ليتأكدن مما قال، وكأن ما قاله الصيدلي إهانة حقاً.

- لا أريد منك سوى أن ترافق هذه السيدة إلى بيتها. لقد أصيبت اليوم بصدمة بالغة.

وفكرت كايت ساخرة في أن هذا تقليل من شأن ما حدث لها، بينما تقبل

www.elromancia.com

غاي هذه اللفتة بظرفه المعتاد فقال بإلحاح: «أنا واثق من أن ثمة ما يمكنني أن أفعله رداً لجميلك هذا».

انحنى الصيدلي باحترام عميق قائلاً: «أؤكد لك أن لا حاجة لذلك مهما كان...».

فقاطعته كايت باندفاع: «لدي فكرة أفضل. سأقيم حفلة تدشين لبيتي وأحب أن دعوكم... جميعاً...».

وسكتت ما إن رأت وجه غاي. حسناً، إنها الطريقة الوحيدة الآمنة لوصف حفل افتتاح «مؤسسة المضافة» في وجود غاي. قال: «أرجو أن تشملني هذه الدعوة أيضاً».

شعرت كايت بجفاف في حلقها ثم قال الصيدلي: «لا يمكن للآنسة أن تغفل عنك، يا سيدي الكونت. أليس كذلك يا آنسة؟».

- طبعاً لا يمكنني ذلك. أنا أرحب بك من كل قلبي يا غاي.

فتمتم بصوت لا يسمعه غيرهما: «لا يبدو التأكيد في صوتك، لا تنسي إرسال تلك الدعوة».

فقالت وهي تستدير لتخرج: «لن أنسى.. شكراً يا سيد ديبونت... شكراً... لك أيضاً غاي».

فقال وهو يسير في أثرها: «ليس بهذه السرعة، عليّ أن أوصلك إلى بيتك، هل نسيت؟».

وعندما أمسك بمرفقها يساعدها، قالت باحتجاج: «أستطيع تدبر أموري... صدقني. يمكنني أن أسير».

- وأنا أيضاً، أو يمكننا أن نعود على صهوة الجواد. الخيار لك.

- لا تعاملني كطفلة، لقد جرحت يدي وحسب. شكراً جزيلاً لعونك لي.

تابع غاي ساخراً: «ووداعاً؟».

- نعم.. لا..!.

وفكرت في أن محاولتها إبعاده ستبدو عدم اعتراف بالجميل وسألها: «أنسير أم نركب؟».

كانت فترة العصر توحي بالكسل، ورغم أجراس الإنذار التي راحت تدق في رأسها، اختارت كايت أن يعودا سيراً على الأقدام. انتظرت في الخارج حتى وجد غاي فتى من القرية ركب حصانه عائداً به إلى القصر.

- أنت تثق بالآخرين بسرعة.

قالت ذلك وهي ترى الفتى على صهوة الحصان مشرق الوجه يفيض بالحماسة وهو يحثه على السير. فأجاب ساخراً: «هذا صحيح. لكن بما أنني أعرف ليون منذ مولده يمكنني القول إن المغامرة آمنة. أنا لم أخترْه من الشارع بشكل عشوائي، فهو أحد أفضل الفرسان في هذه المنطقة. والسماح له بركوب هذا الجواد هي طريقتي في إظهار تقديري للساعات التي أمضاها في التدرب».

- آسفة، تلك حماقة مني. كان عليّ أن أدرك...

- إنسي ذلك..

قال هذا وهو يقودها ناحية المتاجر، ثم يقف أمام واجهة تعرض الحلوى، فسألته: «إلى أين نحن ذاهبان؟».

- أتريدين الحلوى؟ لا؟ أظنك تريدين الآن خبزاً وجبناً وسلطة.

- ماذا يعني هذا؟.

- الحلوى تعني الانقياد للملذات، وأنت تبدين لي وكأنك في مزاج من يشمّر عن ذراعيه استعداداً للقتال.

- هذا ليس صحيحاً.

قالت هذا وهي تحاول أن تكبح جماح عنادها ومشاكستها ثم رفعت يدها المضمدة لتريه السبب.

- حسناً، أظنني مسؤولاً عن هذا ولو بشكل غير مباشر. ما رأيك في أن تصدري الأوامر بينما أقوم أنا بالعمل؟.

- الكونت غاي دي فيلينوف يعمل؟.

- أنا قادر على ذلك تماماً عندما أكون بمفردي. صدقي أو لا تصدقي، إن بإمكاني أن أضع المربى على الكرواسون في الصباح.

أفضى إليها بذلك باهتمام وهو يقترب منها. وعندما أدفأت أنفاسه أذنها، تراجعت مبتعدة: «أرجوك أن تكف عن إغاظتي، يا غاي».

- لماذا؟ كنت تعشقين ذلك عندما كنت صغيرة.

تسارعت خفقات قلبها للذكرى. ذات يوم، كان أي اهتمام من ذلك الفتى الارستقراطي الوسيم يشعرها بالسعادة... أما الآن فهو لا يجلب سوى المتاعب.

- لماذا تحتاج إلى طعام، على أيّ حال؟

سألته محاولة أن تصرف ذهنها عن الشرود في أرضٍ محرمة. فأجاب: «أنا أجوع جداً عندما أعمل».

- لكنك لن تقوم بأي عمل.

قالت هذا بحزم، فهي لن تسمح له بأن يحيدها عن قرارها. لن يدخل أحد إلى الكوخ حتى تتأكد تماماً من أن داخله عاد إلى شكله الأصلي... وهذا القرار يتضمن غاي. بل خصوصاً غاي، كما فكرت وهي تنظر إليه قائلة: «وهكذا، لن تحتاج إلى الأكل».

- كلام فارغ. أنا جائع، وسأتناول طعاماً في الخلاء.

تنهدت وهي تشعر بالإحباط. كانت تظن نفسها عنيدة، لكنها لم تعرف المعنى الحقيقي لهذه الصفة إلا الآن!.

وأخيراً، نجحت في نيل ما تريد في أمر واحد؛ إذ تحججت بالفوضى التي تعم في الكوخ ووضعت الطعام على ضفة جدول ماء يمر في الحديقة. شعرت وكأن الزمن عاد بها إلى تلك الأيام حيث كان القرويون وعمال المزرعة وعدد من أفراد أسرة غاي يجتمعون على ضفتي النهر الرئيسي الذي يمرّ في القرية، في الأيام المشمسة ليأكلوا ويثرثروا. لكن غاي لم يكن يختار الجلوس معها، أو الاستلقاء بجانبها، كما أدركت كايت وهي تخرج الجبن من لفافته. أخرجت من السلة عصيراً بارداً، ورغيف خبز محمصاً شهي الرائحة وزيتوناً أخضر وجبناً، ووضعت كل ذلك على جذع شجرة. نظر إليها غاي قائلاً: «ألم يجهز الطعام بعد؟ أكاد أموت جوعاً».

فقالت شاعرة بسخونة في وجهها تحت نظراته المتأملة: «إنه جاهز».

بدا غاي رائعاً. وبررت ذلك بأنه يبدو مرتاحاً... لكنها حذرت نفسها من أفكارها تلك. وإذا به يقول بصوت رقيق مثير: «أطعميني بيدك».

فقالت من دون تفكير: «بل كل بنفسك».

شعرت بالارتجاف عندما لاحظت أنها عادت إلى الطريقة التي كانت تتحدث بها إليه عندما كانت مراهقة وقحة. أما ردّ غاي فكان عودته إلى الزمن الذي لعب فيه دوراً هاماً في حياتها... وهو دور مثير للاستفزاز بشكل خطير.

- الجواب هو «لا» يا كايت فوستر. إما أن تطعميني بيدك وإما أن تنالي العقوبة. إن لي عليك فضلاً، أريد الآن مقابل ذلك.

كسل غاي و استرخاؤه لم يخدعاها لحظة واحدة. بعد قليل، قال غاي وهو يلقي نظرة خاملة على الكوخ: «أريد أن أوفر قوّتي للعمل الشاق

المقبل».

لم تشك كايت في ذلك وهي تنظر إلى عضلاته القوية تحت كنزته الرياضية... وإلى جسده.. وعادت فرفعت بصرها شاعرة بأنه ما زال يراقبها.

- لا تقلق يا غاي. لا حاجة لذلك حقاً إذا كان رجالك سيأتون غداً.

- لن أسمح بأن تمضي يوماً آخر والألواح الخشبية تغطي النوافذ، هذا لا يطاق.

وكأنهما عادا في الوقت نفسه من زيارتهما الخاطفة إلى الماضي، إذ جاء صوته خشناً وهو يقول: «لو كنت أعلم أنك تودين العيش هنا...».

- أنا لست هنا منذ وقت طويل.

فأجاب بحزم: «هذا لا يهم، لا بد أن رؤية الكوخ بهذه الحالة سببت لك الصدمة».

وفجأة، انتصب جالساً ونظر إليها بعينين ثاقبتين، ثم قال: «وقبل أيّ شيء آخر... أرجو أن تقبلي اعتذاري».

- مقبول.

وأخذت تقطع الخبز وهي لا تدري أيهما أشد خطورة غاي العابث أم غاي الجاد. أما هو فعاد يستلقي على ظهره، ويقول: «يمكنك الآن أن تطعميني إذن».

بقيت يداها معلقتين في الهواء. وللحظة بدا لها وكأن النحل توقف عن الطنين وسكت حفيف أوراق الشجر، ثم أيقظتها ضحكة غاي من ذهولها: «أسرعي يا كايت وإلا جئت إليك وجعلتك تفعلين ذلك».

فقالت بثقة: «لن تفعل هذا».

- أتريدين أن تتأكدي؟.

وقبل أن تدرك نيته، تحوّلت إلى موضوع آخر آمن ومهم معاً: «غاي، أنا أعرف أنني وصلت لتوي، لكنني أريد أن أزور أمك إذا كان ذلك ممكناً».

تغير مزاجه على الفور: «إنها لا تقابل أحداً».

- هل أنت واثق من أنها لن تقبل بزيارتي؟.

- وبأي شيء يذكرها بالحادث، وخصوصاً ما يذكرها بأعز صديقاتها والتي هي عمتك.

- يمكنني أن أتفهم ذلك. أريدها فقط أن تعلم أنني سألت عنها، هل ستخبرها بذلك؟.

- هذا طبيعي، وشكراً يا كايت على اهتمامك هذا، أظنها تشعر بالوحدة البالغة في القصر. حالما تستعيد القدرة على رؤيتك، سأقترح عليها أن تزوريها.

فقالت بسرعة: «كما أنني أرحّب بها دوماً في بيتي هذا. على الأقل عندما يعود كل شيء إلى طبيعته، فأنا أكره أن ترى الكوخ كما هو الآن».

توتر فك غاي وقفز واقفاً ثم تقدم ليساعدها في تحضير الطعام قائلاً: «أنت الآن تجعلينني أشعر بالذنب. لو خطر لي لحظة أنك كنت تريدين العودة...».

فقالت بحزم: «لا تشعر بالذنب، فلست وحدك المخطىء».

- حسناً، عليّ الآن أن أصرف النظر عن فكرة توسيع مزرعتي. يبدو أن طلبي التخلص من أكواخ الإجازات تحوّل عن مجراه.

- هكذا تُدار أمور العمل بكل تأكيد، فأنا لا أضيّع وقتاً عندما أحدد هدفاً لي.

- لكن هذا ليس عملاً، إنه أنت.

www.elromancia.com

وناولها قطعة خبز محشوة بالجبن. كانت عيناه تتراقصان مرحاً، ولم تعرف وهي تأخذ قطعة الخبز من يده لتأكلها، أيضحك عليها؟ أم معها؟.

- إنها لذيذة.

- لذيذة جداً.

بعد الطعام، أصر غاي على البقاء حتى نزع الألواح الخشبية كلها عن النوافذ.

لوّحت له بيدها مودعة. لقد قررت أن تعيد الكوخ إلى طبيعته في أقرب وقت، لكنه لن يعود إلى طبيعته تماماً أبداً، كما أخذت تفكر مكتئبة وهي تحمل سلة الخيزران المثقلة بالأزهار التي جمعاها معاً ثم تدخلها إلى المنزل. إنها تنوي إعادة كل شيء إلى ما كان عليه بالضبط في حياة العمة أليس. هل هذا للذكرى؟ لا، بل تقديراً، صححت ذلك لنفسها وهي تضع الأزهار في الماء.

في الأيام القادمة ستشرح لغاي خطتها، وما تريد أن تفعله بالكوخ، قبل أن يتحول الأمر بينهما إلى مشكلة. هذا ما حدثت نفسها به بثقة.

٣ - كونتيسة، ليوم واحد فقط

في أحضان الليل البهيم، حيث لا حساب للوقت استيقظت كايت وهي تسعل. وعندما مدّت يدها لتشعل النور بجانب سريرها، وهي لا تزال شبه نائمة، أدركت أن أجفانها ملتصقة ببعضها أيضاً. وعندما حدّقت إلى الساعة بشدة أدركت أن هذه الرائحة الخانقة الحادة هي رائحة دخان.

بإمكانها أن تشمّها، أن تتذوقها... وكأنما وجهتها يد غير مرئية إلى منشأ الرعب، فتسمرت عيناها على أسفل الباب الثقيل المصنوع من خشب السنديان، حيث يندفع اللهب من خلال فتحة صغيرة تحته.

انتبهت على الفور فقفزت من سريرها وركضت تحضر رداءها، ثم عادت إلى الباب تتحسسه براحتها من أعلى إلى أسفل. وجدت أنه لا يزال بارداً نوعاً ما ويشكّل حاجزاً قوياً بينها وبين ما هو خلفه. تصلبت، مرهفة سمعها وهي تحاول أن تحدد مدى انتشار النار وقد توتر وجهها قلقاً. إنها تسمع طقطقة اللهب بوضوح تام. لكنها كنت بالغة الحذر...

إلاّ أنها عادت وفكرت في أنها لم تكن حذرة بما يكفي، وتذكرت الشموع التي أضاءتها على مائدة المطبخ. استعادت ذلك المشهد في ذهنها، وتذكرت ألبومات الصور الموجودة بقرب تلك الشموع. كانت تنوي أن تنقلها قبل النوم، لكنها أطالت السهر وهي تفكر في غاي، ومشاعرها المختلطة وحالة الكوخ وما إذا كان سيجهز في الوقت المناسب. تأوهت بألم بالغ وهي تدرك أن ذلك لن يحدث أبداً الآن. وإذا حدث بمعجزة ما، فلن

www.elromancia.com

يغفر غاي لها أياً من الأمرين. لقد كذبت عليه، كما خططت لإقناع والدته المسنة بالخروج من عزلتها والقدوم إلى الكوخ. وتساءلت إن كان هذا أشبه بعرض حياة كاملة لشخص يغرق أمام عينيها؟

عادت بانتباهها مكرهة إلى الباب. ثمة أمر واحد مؤكد وهو أنها أضاعت ما يكفي من الوقت. شقت الباب بحذر وأخذت تحدق إلى ظلام مليء بالدخان. كان السلم لا يزال خالياً من الدخان وبدا لها آمناً. نظرت خلفها إلى غرفة نومها... ما زالت أمامها فرصة لإنقاذ بعض الأغراض. على منضدة الزينة المغطاة بالزجاج قام إطار فضي يحوي صورة للعمة أليس وإلى جانبيها والدة كايت ووالدها، حملتها بسرعة، ثم اختطفت علبة فضية صغيرة معلقة في سلسلة تحتوي على صورة لها وهي في التاسعة من عمرها، تحدق بجرأة إلى الكاميرا. شعرت بوخزة ألم مفاجئة وهي ترى القلق والألم خلف تظاهرها بالشجاعة حتى وهي في سن التاسعة. الأنف الأفطس والنمش في وجهها والشعر الأحمر الذهبي الجعد الذي يشكل هالة حول وجهها، كل ذلك يثبت أن الصورة أخذت في فرنسا. لم تكن للعلبة قيمة حقيقية ما عدا أنها تمثل ذكرى من صباها وسيطرة عمتها على حياتها حينذاك... لم تذهب كايت قط إلى أي مكان من دونها. فهاتان الصورتان تمثلان الخير والسعادة وخلوّ البال في حداثتها، بعد أن وافق والداها على أن تمضي كل صيف في رعاية عمتها أليس.

راح الدخان يتكاثف إلى حد خطير، وأدركت كايت أن عليها الخروج إلى الهواء الطلق قبل أن تسقط غائبة عن الوعي. هذه المرة، لفح الهواء الساخن وجهها وهي تفتح الباب، ما أرغمها على التراجع فزعة. نظرت مرة أخرى فرأت النيران تلعق جوانب السلم الخشبي مكوّنة مشاهد سيريالية من الظلال واللهب والدخان والرماد. استجمعت شجاعتها واندفعت خارجة من الباب لتقذف بنفسها على السلم بكل قوتها. امتلأت عيناها بالدموع ما إن

خرجت من الغرفة والتف الدخان الأسود الكثيف حول صدرها.

اجتازت المطبخ متوجهة إلى الباب الخلفي، لكن الخوف أعاق حركتها وهي تكافح لتفتحه. كانت تشهق وتسعل وتلهث في وقت واحد، إلا أن عنادها ساعدها على الاستمرار. وعندما انفتح الباب اندفعت في جوف الظلام شبه زاحفة إلى الممر حتى لم تعد تشعر بحرارة النار. لكن، ما إن صفا ذهنها حتى اكتشفت أن العلبة الفضية الغالية قد سقطت من يدها أثناء هربها، فأطلقت صرخة يائسة مستوحشة شقت ظلمة الليل. وعندما أدارت بصرها المعذّب نحو الكوخ رأت الدخان يتصاعد من السطح، والجمر المتقد يندفع من نافذة المطبخ سحباً من شرر لامع كأنها استعراض للألعاب النارية. راحت تضحك بشكل هستيري وهي تحاول وضع خطة يائسة؛ لم تظهر النار بعد في الطابق الأعلى من الكوخ... ربما يمكنها أن تعود أدراجها. كل ما أمكنها التفكير فيه هو العلبة الفضية ثم تذكرت أن السلسلة وخزتها في يدها وهي تهبط السلم.

خلعت رداءها، وبللته بالماء من الصنبور الخارجي، وهي ترتجف خوفاً وبرداً. ثم خلعت بنطلون بيجامتها وبللته وربطته حول وجهها، وعادت مترنحة إلى الباب الأمامي وهي تلعن تلك الإصابة القديمة في ساقها التي أخذت تعيقها. راحت تنقل نظرها بين داخل البيت وخارجه بسرعة حتى استوعبت المشهد بأكمله. كانت النار متأججة بقوة، لكنها فكرت في أن اللهب سينير لها الطريق وستكون على ما يرام إذا تمكنت من التحرك بسرعة. لديها فرصة ضعيفة في إنقاذ العلبة قبل أن تذوب في النار، لكنها ستحاول الاستفادة منها.

كانت على وشك أن تندفع إلى الداخل عندما طغت أصوات المحركات الصاخبة على أصوات النيران المتأججة. سمعت صراخ الناس من حولها وانتبهت إلى قرع أجراس الإنذار في القرية وانفجر الارتياح صرخة من

أعماقها، خرجت من دون إرادتها. امتلأ قلبها بالشكر لأنها ليست وحدها، وأن شخصاً ما رأى الحريق ففكر في طلب العون. كان عقلها قد فقد السيطرة على تصرفاتها، فاندفعت تبحث عن علبتها.. نعم عليها أن تذهب الآن...

- لا يا كايت، لا. ماذا تفعلين؟.

وقبضت يد حديدية على خصرها تمنعها، ثم تحملها بعيداً عن عتبة الكوخ... لتدفعها بعدئذٍ بعيداً عن الناس الذي كانوا يتسابقون في الطريق، يصيحون ويستعجلون بعضهم بعضاً في تقديم العون.

- دعني أذهب، دعني أذهب.

كانت كايت تصرخ بقوة حتى كاد صوتها يبح قبل أن يضعها غاي أخيراً على الأرض وهو يحدق إلى عينيها العنيفتين المستميتتين، ويقول: «يا إلهي، يا كايت! بماذا تفكرين؟ كدت تموتين!».

- لا يهمني، لا يهم! ألا تفهم؟.

صرخت بصوت أجش وهي تحاول أن تتخلص منه لتعود إلى الكوخ: «عليّ أن أعود! دعني أذهب!».

فقال بخشونة وهو يشدها إلى صدره: «لا!».

- أنا أحذرك...

لكن صوتها تلاشى وارتخت ساقاها.

- لا، لن تعودي يا كايت. لقد فات الأوان.

قال ذلك وهو ما زال يحتضنها، لكن صوته أصبح أكثر رقة. وما إن تمكنت من استعادة أنفاسها حتى صرخت: «لا، هذا غير ممكن».

كانت صرختها عنيفة، لكن شراستها لم تزد غاي إلا إصراراً على التشبث بها. أمسك بذقنها ورفع وجهها لتواجهه: «انظري يا كايت! إنهم يسيطرون على النار. سينقذون الكوخ، انظري».

قال هذه مرة أخرى، وعندما حاولت يائسة، أن تدفعه عنها مجدداً طوقها بذراعيه بقوة حتى لم تعد تستطيع الحراك.

- لا يمكنك أن تذهبي، كما أنك لا ستصغين إلي. سأشرف بنفسي على كل الإصلاحات، سأبني الكوخ من جديد، حجراً حجراً إذا اضطرني الأمر. حتى إنني سأبنيه بنفسي.

فأخذت تهز رأسها: «لا، لا... أنت لا تفهم.. لن يكون هو نفسه».

- ماذا تعنين بأنه لن يكون هو نفسه؟.

- أغراض عمتي أليس....

وسكتت ثم أخذت تنشج مستندة إليه، وكأنها تذوب فيه.. تريده أن يطوقها بذراعيه، لتشعر بالراحة. دسّ وجهه في قمة رأسها بينما أخذ يمرر يده على شعرها مهدئاً، ثم سألها برقة: «أتريدين إنقاذ أغراض عمتك؟».

- أنت تعرف ما أعني.

أمسك بها وشدها إلى الخلف لكي يرى وجهها: «لا أظن ذلك. لكن إذا كنت تحاولين أن تخبريني أنك تذرفين هذه الدموع كلها على بعض التحف والزخارف...».

وهز رأسه وهو ينظر إليها، ثم وضع راحة يده على قلبها وتابع برقة فائقة: «العمة أليس هنا، يا كايت.. وليست في الكوخ».

بادلته النظر لحظات عدة.. منحتها قناعته هذه قوة اخترقت جنون الساعة الماضية. وببطء بالغ استرخت بين ذراعيه وهي تهمس: «أنت على حق!».

ثم أضافت بقلب محطم وكأنها تحدث نفسها: «لن أستطيع الاحتفاظ بالماضي مهما جاهدت».

جذبها إليه فوضعت خدّها على صدره شاعرة بدفء كنزته الناعمة، بينما

www.elromancia.com

قال بخشونة: «سيكون المستقبل أفضل، وسترين».

واسترعت انتباههما مجموعة صغيرة من الرجال تخرج من الكوخ وقد اسودت وجوههم من الدخان. قال أحدهم: «تمت السيطرة على النار سيدي الكونت، ولكن سنتأكد من سلامة البناء في الصباح حيث يمكننا تفحّصه على ضوء النهار».

ردّ غاي بلطف فيما ذراعه ما زالت تطوق كايت: «شكراً جزيلاً، لقد تجاوبتم جميعاً بشكل رائع. لا يمكنني التعبير عن شكري بما يكفي».

وأدركت كايت أن الكلمات لا تكفي لوصف ما فعلوه، فقالت بدورها: «لقد أنقذتم الكوخ وحياتي. سأكون دوماً ممتنة لكم».

فأجابها قائدهم: «إنه واجبنا يا آنسة».

- لكن الوقت تجاوز منتصف الليل، ومع ذلك جئتم... جميعاً.

والتفتت تشير إلى كل القرويين الذين جاءوا ليساعدوا رجال الإطفاء فقال رجل من بينهم: «السيد الكونت هو الذي نبهنا. نحن في قرية فيلينوف نعتمد على بعضنا البعض. إنه نظام حسن، أليس كذلك يا آنسة؟».

- بكل تأكيد.

ونظرت إلى غاي الذي لم يظهر دليلاً على أنه ينتظر تكريماً لإنقاذه حياتها، وتابعت تقول: «والآن بعد أن أخمدت النيران، هل يمكنني العودة إلى الكوخ و...؟».

فقال رئيس رجال الإطفاء: «هذا غير ممكن أبداً يا آنسة، لسنا متأكدين من أن الكوخ آمن. عليك أن تنتظري إلى الغد».

- ولكن، من المؤكد أن باستطاعتي إلقاء نظرة سريعة على داخل الكوخ.

عندئذٍ، تأوه غاي بنفاد صبر، فالتفتت نحوه ولاحظت اللطخات السوداء على وجهه التي زادته وسامة، فبدا أشبه بأمير محارب.

قال بخشونة: «لن تعودي إلى الكوخ».

أجفلتها نبرته الأخيرة، فهي لم تتعود تلقّي الأوامر فقالت: «إذا استدارت سيارة الإطفاء بحيث تضيئه بأنوارها..».

فقاطعها: «أنا أعلم أنك عانيت من تجربة مخيفة، كما أعلم أنك متكدرة، لكنك لا تفكرين بتعقل. هؤلاء الرجال تركوا أسرهم في منتصف الليل لكي يأتوا إلى هنا».

توهجت وجنتاها وهي تدرك أنه على حق، وقالت على الفور: «آسفة، يمكن لذلك أن ينتظر».

أخذ رجال القرية والإطفاء يغادرون المكان، بعد أن انتهت مهمتهم، ولم يبق سوى كايت وغاي معاً على ضفة النهر المعشوشبة أمام الكوخ. ضوء القمر الفضي كان الضوء الوحيد الذي يخترق الأشجار الكثيفة. قال غاي وهو يقودها مبتعداً: «سآخذك معي إلى بيتي».

- آه، لا...

وحاولت أن تعود ثم توقفت.. ما الذي تفعله؟ إنها لا ترتدي سوى بلوزة بيجامتها تحت ردائها المبلل القذر، ولا يمكنها أن تنام على الأرض في الغابة بمثل هذه الملابس. قال مشجعاً وهو يدفعها برفق ناحية الطريق: «قبل أن نتأكد من سلامة الكوخ لا يمكنك حتى البدء بإصلاحه، فكيف بالانتقال إليه. سيمضي وقت طويل قبل أن يصبح صالحاً للسكن».

عبست كايت. لقد أنستها الصدمة كل شيء، لكن الوقت ليس مناسباً لتخبر غاي أنها تخطط كي يصبح الكوخ جاهزاً بعد ثلاثة أسابيع، مع وصول أول مستأجر. قال يحثها على مجاراته في السير: «هيا، فأنت ترتجفين مع أن الجوّ ليس بارداً إلى هذا الحد. إذا كنت تعانين من الصدمة فالأفضل أن أضعك في فراشك بسرعة».

- أتعني في القصر؟

www.elromancia.com

- طبعاً في القصر!

- إنني الآن مصدر إزعاج بالغ.

- ليس أكثر مما أتذكره عنك..

قال ذلك ساخراً وهو يرافقها بين الأشجار نحو الطريق المؤدي إلى بيته.

* * *

لم تتعود كايت أن يعاملها أحد وكأنها دمية رقيقة من الخزف قد تتكسر إذا عوملت بخشونة. لكن التعليمات التي تلقتها مديرة منزل غاي، كانت على هذا النحو تماماً. صدمت المرأة لرؤية حال كايت، فأصرّت عليها لتأخذ حماماً قبل أن ترشدها إلى إحدى غرف النوم الفاخرة المخصّصة للضيوف.

لو لم تكن كايت تعاني من مثل هذا الاضطراب في المشاعر لاستمتعت بهذا الدلال. لكنها على الأقل، ظفرت بوعد من غاي بأن يأخذها في الصباح إلى الكوخ. التفكير في ذلك وحده جعل نبضات قلبها تتسارع. راحت تنظر إلى الخارج من إحدى النوافذ المستطيلة بجانب سريرها، ورأت أمامها أجمل مشهد على الإطلاق، حيث تمتد الحدائق الرسمية أمام القصر، تلك الحدائق التي أنشئت منذ قرون. وتذكرت أن الوضع لم يكن دوماً هكذا، ففي طفولتها، كانت الحدائق مهملة وغير منظمة كأيّ قسم آخر من المزرعة. صحيح أن والد غاي كان أظرف ارستقراطي في فرنسا، لكنه كان أيضاً من أكسلهم.

وها هي ترى أن غاي لم يرث أفضل مزايا أبيه وحسب، بل يتحلّى أيضاً ببعض المزايا الأخرى التي جعلته يقوم بإصلاحات في ممتلكاته المتداعية الموشكة على الانهيار. كان قد أخبرها أنه يستعين بالمخطوطات والصور القديمة ليتأكد من صحة التصليحات، وأنّ إتمام هذا المشروع سيتطلب سنوات كثيرة.

قطع عليها أفكارها قرع على الباب، فانتفض قلبها. لكن القادم لم يكن سوى خادمة فتية، جاءت لتأخذ صينية الفطور. وعندما همت الفتاة بالخروج توقفت عند العتبة وقالت: «الكونت يرسل إليك تحياته، يا آنسة.. ويرجو أن تكوني قد نمت جيداً، وسيراك عند الظهر إذا كان هذا يناسبك».

توهج وجه كايت: «إنه يناسبني، وشكراً على الفطور».

لطالما اعتبرت هذا القصر قصر الأميرة النائمة، وعندما كانت صغيرة راودتها أحلام كثيرة عن أن يكون لها دور أساسي في حياته المثيرة. من المؤسف أن ما من حكايات خرافية للكبار، كما أخذت تفكر بابتسامة ساخرة.

نزلت عن السرير ورفعت سماعة الهاتف، وعندما أجابتها مديرة المنزل سألتها: «أتظنين أن من الممكن أن أقوم بزيارة قصيرة للكونتيسة فيلينوف اليوم؟ فهمت يا مدام دبليس... لا بأس، سأنتظر إلى وقت آخر مناسب أكثر. أرجوك أن تخبري الكونتيسة أن كايت فوستر سألت عنها وأنها ترسل إليها حبها».

كان غاي في انتظارها في مكتبه وقد أدار ظهره إلى الباب، لكن سرعان ما شعر بقدومها رغم خفة خطواتها فاستدار نحوها: «كايت!».

فاقت قوة ابتسامته السرور الذي شعرت به لمجرد رؤيتها له مرة أخرى.

- فهمت أنك نمت جيداً ولو لساعات قليلة، أليس كذلك؟.

- كيف لا، ولديكم أكثر أسرّة العالم رفاهية؟.

- أرجو ألا تشعري بالغربة هنا في القصر، بعد أن عدت إلى فرنسا.

قال هذا بلهجة رسمية لا ينقصها سوى الانحناء احتراماً، فردت عليه بمثل لهجته: «شكراً، وشكراً أيضاً لهذه الملابس الجميلة. لم يكن ثمة حاجة

حقاً...».

- المعذرة إذا لم أوافقك الرأي. أنا أجد أزياء «شانيل» لهذا الفصل أجمل بكثير من ذلك الرداء القذر الذي يعود طرازه إلى السنة الماضية.

قال هذا وهو يتقدم منها محدقاً إلى وجهها بعينين لامعتين، فشعرت بخفقات قلبها تتسارع وقالت: «في هذه الحالة، عليّ أن أقول بأمانة، إنك محق».

- حسناً، إذن.. استديري لأرى التأثير الكامل لهذا الثوب الجميل.

ارتفع حاجباها قليلاً قبل أن تطيع أمره، لكن غاي لم يجعلها تشعر وكأنها حبل غسيل بل أشعرها بالتقدير والتدليل.

- انظر يا غاي، هذا الثوب...

مرّت بيدها على الجزء الأعلى من الثوب المحكم على جسمها، وقالت: «إنه أسطوري الجمال، ولكن بصراحة...».

قاطعها وعيناه الرماديتان الفضيتان تتراقصان هزلاً: «بصراحة تامة».

- لا بد أنه كلّف مبلغاً كبيراً، وأنا.. حسناً... لن ألبس هذا الثوب مرة أخرى أبداً.

- لِمَ لا، إنه رائع!.

ضاقت عيناها الخضراوان وتابعت مفسّرة: «هذا ما أعنيه».

- أتعنين أنه لا يعجبك لأنه رائع؟

- هذا ما أعنيه بالضبط، فأنا لا أعيش طراز حياتك فحياتي تشبه...

فقاطعها مرة أخرى: «حياة الصبيان... كيف نعبّر عن ذلك بالإنكليزية؟».

ثم غطى فمه بقفا يده فلم تدرِ إن كان يضحك أم لا: «أنت تعلم جيداً كيف نقول هذا بالإنكليزية، حسناً... أنا لست الكونتيسة دي فيلينوف،

أليس كذلك؟».

- هذا صحيح، ولكن لن يضيرك أبداً أن ترتدي هذا الثوب الجميل ليوم واحد.

- لكنني أريد تنظيف الكوخ..

- معك حق... سأطلب لك مجموعة من ملابس وأحذية العمل الخشنة عصر هذا اليوم.

نظرت إليه بعينين ضيقتين، ولم تعرف ما إذا كان جاداً أم أنه يمزح.

- والآن، ستتغدى... هنا.

قال ذلك وهو يشير إلى شاطىء البحيرة حيث وضعت مائدة مجهزة بأفخر أنواع الآنية الصينية والكؤوس الأنيقة وثبتت فوقها مظلة خفيفة تحمي من أشعة الشمس.

- عليّ أن أعود.

- ستأكلين شيئاً قبل ذلك.

قال هذا بحزم وهو يقدم لها ذراعه. تأبط ذراع غاي كان بالنسبة إليها أشبه بوضع مفتاح في باب الفردوس. حذرت نفسها من تلك الفكرة، ولكن... من المؤكد أن لا ضرر من تجربة الدور الذي يريدها أن تلعبه لهذا الغداء فقط..

أثناء تناولهما الغداء قالت له: «لا يمكنني أن أرتدي أياً من تلك الملابس التي وجدتها في غرفة الملابس، إنها...».

سألها بذلك الصوت المنخفض المغري نفسه: «ماذا؟ جميلة... أنثوية؟ أخبريني...».

- إنها أنثوية ورائعة الجمال، ولكن هذا ليس ما يهمني.

فسألها مقطباً: «وما الذي يهمك إذن؟».

www.elromancia.com

- أنا لا أريد سوى ثوب واحد، ولا بد أنك طلبت نصف الإنتاج الصيفي من ذلك المتجر.

فقال ببساطة: «بل كله، ودار الأزياء ساعدتني في شراء الأحذية والحقائب والملابس الداخلية أيضاً في مثل هذا الوقت القصير. طبعاً، لم يكن لدي وقت لأتفحص كل تلك القطع. لذا عليك أنت أن تختاري يا كايت، فتحتفظي بما يعجبك منها فيما أعيد لهم البقية. احتفظي بكل شيء، أو لا شيء، الأمر راجع إليك».

منعها الذهول البالغ من أن تجادله بالمنطق: «لكنني لا أستطيع، بأي شكل..».

فقاطعها بلهجة حاسمة: «لا بأس، خطرت لي الآن فكرة أفضل».

فتنفست الصعداء وهي تضع الشوكة والسكين من يديها.

- لطالما كنت تحبين الأناقة. أتذكر حين كنت تأتين إلى بيت عمتك مرتدية ذلك الثوب المدرسي القبيح، وإذا بك في اليوم التالي تظهرين بملابس رائعة تشتريها لك عمتك. يوماً كنت تبدين متوترة قلقة، وفي اليوم التالي...

وسكت ينظر إليها مفكراً وكأنه يبحث عن طريقة يصف بها مظهرها. ووجدت هي اهتمامها مركزاً على مظهرها الحالي. قالت تحثه على متابعة حديثه متعمدة تحويل انتباهه عن فتحة العنق في ثوبها: «وفي اليوم التالي؟».

فقال وهو يسترخي إلى الخلف هازاً كتفيه: «في اليوم التالي، تبدين كما تحبين أن تكوني. ارتداؤك شالاً ملوناً وبنطلون جينز يعني أن عليّ أن أحترس من ملكة القراصنة. تنانير الموسلين الجميلة التي تشبه كثيراً التنورة التي كنت ترتدينها بالأمس... تظهرك بمظهر فتاة قروية شاعرية أو حتى أميرة الجن».

- آه!

هتفت بذلك عابسة، ثم نظرت إلى الثوب الذي ترتديه: «وهذا، ماذا يعني؟».

هز كتفيه وهو يلقي رأسه إلى الخلف في قهقهة مليئة بالرجولة: «ربما الكونتيسة دي فيلينوف؟ لهذا اليوم على الأقل».

قال هذا وهو ينظر إليها بتحدٍ سرعان ما استجابت له كما توقع بالضبط: «أحذرك، يا غاي... إياك أن تغيظني... لماذا لا نعود إلى رأيك هذا؟».

فقال: «أرى أن نترك الملابس هنا، وبهذه الطريقة، حين تشعرين برغبة في أداء أي دور...».

رفع حاجبيه قليلاً بينما عيناه تضحكان وقد بدا فيهما شيء أكثر إثارة... وتملك كايت إحساس لم تجرؤ على التفكير فيه... على الأقل ليس أثناء جلوسها بقربه.

عندما انتهيا من الغداء قال: «أأنت جاهزة للذهاب إلى الكوخ الآن؟».

أومأت كايت بالإيجاب قائلة: «نعم، أنا جاهزة. وإذا تبيّن أن الكوخ آمن، وأن غرف النوم صالحة للسكن، فأحب أن أبقى هناك. أنا أعلم أنه يحتاج إلى الكثير من التنظيف قبل أن تبدأ أعمال التصليح التي أود أن أساهم فيها».

رأت فكه يتوتر، لكنه مثلها، يحتفظ بأفكاره لنفسه، فاكتفى بإيماءة موافقة قصيرة: «كما تشائين. ستعطيك مديرة المنزل سلة كبيرة مليئة بالأطعمة والأشربة، وأنا واثق من أن لدينا مصابيح تُضاء بالزيت».

- لا حاجة لأن تزعجوا أنفسكم حقاً، سأكون على ما يرام.

قالت هذا وهي تدرك أن ما تريده حقاً هو الابتعاد عن القصر. لقد أنبأها حدسها أن الاحتكاك بغاي سوف يؤدي إلى تعقيد للأمور وهي غير

www.elromancia.com

مستعدة أبداً لمواجهته.

قال غاي وهو يقفز قبل أن تفكر في مزيد من الاعتذارات: «هراء، سأعيدك إلى هناك الآن وأعرف بالضبط ما تحتاجينه».

٤ - ماريا و.. أسرار

لم تستغرق رحلة العودة بالسيارة إلى الكوخ سوى دقائق معدودة، ولكن تفحص كايت لدماره من الخارج استغرق لحظات عدة أخرى.

حثها على النزول بنفاد صبر وهو يصفق بابه ويفتح بابها لتنزل، عند ذلك فقط أخذ ذهنها يعمل. وتنبّهت إلى أن غاي ما زال مستيقظاً منذ منتصف الليلة الماضية من أجلها، رغم مشاغله الأخرى، فقالت وهي تخفي صدمتها لرؤية حالة الكوخ المزرية من الخارج: «آسفة، كنت أقوّي عزيمتي فقط».

سار في الممر بنشاط أمامها وهو يقول لها من فوق كتفه: «ما كنت لأحضرك إلى هنا لو لم يكن الكوخ قابلاً للإصلاح».

وصل إلى الباب وفتحه، فامتلأت خياشيمها على الفور برائحة رطبة كريهة نتنة. حبست أنفاسها وهي تحاول تعويد عينيها على عتمة المكان. قال: «اسمعي، الوضع ليس سيئاً جداً. وقد اتصلنا بوكالة تنظيف آثار الحرائق... ما بك؟».

سألها ذلك عندما صدر عنها صوت ينم عن التوتر. ربما لم يبد الوضع له سيئاً جداً، لكن بالنسبة إلى كايت فإن الخراب الذي رأته في الداخل بمثابة كارثة.

لقد لحق الدمار بكل الأغراض الرقيقة الشفافة والأثاث الناعم، أما أبواب الخزائن الثقيلة والمائدة الرائعة المصنوعة من خشب السنديان والكراسي القروية الطراز فبدت خدوشها غير قابلة للإصلاح. لكن كايت

www.elromancia.com

رأت، وهي تنظر من حولها، أن خسارتها أكبر من ذلك كله، فقد خسرت أهم جزء من حياتها. رأت حطام التحف متناثراً على الأرض، لكنها لم تجد أي أثر على الإطلاق لألبومات الصور فراحت تبحث عنها بين الحطام المبلل الكريه الرائحة وتصاعدت منها آهة وهي تستدير مكرهة ثم قالت: «لقد ضاع كل شيء».

- كلا. هذا ليس صحيحاً.

وأخرج يده من جيبه، فشهقت: «علبتي!».

- أحضرها لي الرجال هذا الصباح.

لفّ السلسلة حول معصمه بينما أخذت العلبة تتأرجح أمام وجهها. شعرت بأن ذهنها مشوّش وبقيت للحظات عاجزة عن التفكير بصفاء. أمسك غاي بذراعها وقال: «ألن تشكريني؟».

فقالت وهي تحاول الابتعاد عنه: «أنت... أنت أخفيتها عني».

نظر في عينيها وهو يقول بصوت منخفض عنيف: «بل اخترت اللحظة المناسبة لأعطيها لك. ألا تظنين أنني أدرك مدى حزنك وأنت تنظرين إلى كل هذا الدمار؟ أردت أن تضع هذه العلبة الكارثة في أبعادها الصحيحة... فتجعلها تبدو كما هي... سطحية».

أبعدت وجهها عنه، علّها تتخلص من تلك المشاعر المختلطة التي تربكها لكنه أدارها إليه وأمسك بذقنها، ثم رفع وجهها وهو يقول بإصرار موجهاً كلامه إلى عينيها المغمضتين بشدة: «ما زلت أنتظر».

- تنتظر ماذا؟.

وجازفت بالنظر إلى وجهه، لكنها سرعان ما ندمت على ذلك.

- أنتظر أن تشكريني.

قال هذا بصوت خفيض جعل أنفاسها تبدو صاخبة مقارنة به.

كان ينبغي أن تشكل صورتهما واحة وسط كل هذا الخراب، لكن كايت شعرت وكأنها تقف عند عتبة عالم آخر... عالم لم تكن واثقة من أن عليها أن تدخله. أحاطهما الصمت وكأنه حجاب واقٍ يحجب عنها الحقيقة التي عليها أن تواجهها منذ بعض الوقت، بينما تسللت أشعة الشمس من المصاريع المهشمة لتضيء وجهيهما.

- شكراً..

قالتها وقد شعرت بالارتياح لمرور هذا الأمر بسلام. لكن عندما وضع السلسلة في يدها، أحاط وجهها بيديه، وسألها: «أتشعرين بتحسن الآن؟».

هذه المرة لم تجد مهرباً من عينيه.. وعندما نظرت إليهما علمت أن هذه إحدى الأعيب غاي التي لم تعرفها من قبل. كاد قلبها يتوقف عن الخفقان وهي ترى مشاعراً ملتهبة تطل من نظراته. لكنه تركها وهو ينظر إليها وكأنه يقول إنها حرة، حرة في ادعاء أن تلك اللحظة لم تحدث قط... وإذ بجسدها يميل نحوه طوعاً، فما كان منه إلا أن طوّقها بذراعيه لطمأنتها، ولمساندتها في اللحظات الصعبة. تسارعت أنفاسها وهي تشعر بحرارة جسده القوي ورقة لمساته، لكن غاي ظل مسيطراً على نفسه ولم يتجاوز عناقه حدود المؤاساة. أرغمت نفسها على الابتعاد عنه وهي تقول متعثرة: «كفى... هذا يكفي الآن يا غاي، مهما كانت اللعبة التي تلعبها، فأنا لست مستعدة لها».

- أحقاً؟.

- أنت تعرف ما أعنيه.

قالت هذا وهي تغطي فمها بظاهر يدها لإخفاء شعورها. للحظة، أحسّت أن شعوره مماثل لشعورها، لكن عندما نظرت إلى وجهه أدركت أن تلك اللحظة مرّت فملامحه لم تظهر سوى عزيمة فولاذية. لكن ما هي لعبته؟ هل هذا اختبار لمشاعرها نحوه؟ إذا كان الأمر كذلك، فيبدو أنه يريد أن يثبت لها أنها ما زالت منجذبة إليه. لكن عليها ألاّ تظن لحظة واحدة، أن شعوره

نحوها مماثل لشعورها نحوه. قال غاي بهدوء محوّلاً انتباهه إلى المطبخ المدمّر: «قد يبدو الوضع سيئاً، لكن ما من دمار في الطابق العلوي، حتى إن المطبخ لا يحتاج سوى إلى القليل من الترتيب».

تسمّرت نظراتها على ظهر غاي العريض الصلب وذهنها ما زال مشوّشاً. بدا بالغ التحكم بنفسه وتساءلت، كيف يمكنه ذلك فيما هي لا تزال مشوّشة مضطربة؟ هل يتوقع منها حقاً أن تتبادل معه حديثاً عقلانياً عن حالة المطبخ؟ أشار غاي إلى صف من الخزائن وتابع يقول غير واعٍ لحالتها الذهنية: «انظري إلى هذه الخزائن مثلاً، يمكن تغيير أبوابها بسهولة، وهي صلبة للغاية....».

ثم ضرب إحداها بقبضته وفتحها: «كل ما في الداخل سليم تماماً.. أنظري».

وأخرج من الداخل صحنين من الفخار وأضاف: «ما من شق واحد في أي منهما. يمكنك أن تقدمي فيهما الطعام لنصف سكان القرية».

- بل كلهم، كما أرجو.

قالت هذا عازمة على أن تريه أنها استعادت هدوء أعصابها بعد عناقه مباشرة كما فعل هو تماماً. فقال وهو يعيد الصحنين إلى الخزانة: «نعم. تعنين حفلة تدشين بيتك بعد ثلاثة أسابيع. لذا، سأعمل على إعادة كل شيء هنا إلى طبيعته من أجلك».

قال هذا ناظراً إليها.. بدا سروره واضحاً لأنها عادت إلى التفكير بصفاء، فما كان من كايت إلا أن رسمت ابتسامة على ملامحها المتوترة. من حسن حظها أنه لم يحس باضطراب ذهنها. وفجأة، شعرت بالضيق وبدا لها أن ما يحدث يفوق قدرتها على الاحتمال... فقدانها لعمتها أليس، الخداع، دمار الكوخ، تذكير غاي لها بالموعد الذي حددته... عليها أن تخرج من الكوخ... إلى الهواء النقي.

سألها وهي يتبعها إلى الخارج، غافلاً عن العاصفة التي تجمّعت سحبها في ذهنها: «هل تحسنين الطهو؟ إذا كنت لا تفعلين، فلا تهتمي للأمر. سأرسل لك طاهية القصر ولا ضرورة لأن يعلم أحد بذلك».

نزل هذا الاقتراح عليها كدلو ماء بارد، فهدأ ما تبقى من صدمة عناقه لها. في طفولتها، كان الآخرون يرسمون لها حياتها لكن الأمور اختلفت الآن. لقد أصبحت مسؤولة عن نفسها فقالت: «أستطيع تدبّر أموري، شكراً».

أدارت وجهها إلى الشمس وراحت تعبّ الهواء. ربما بدا نكران الجميل واضحاً في صوتها، لكن عليها أن تكون صريحة معه.

- أنا واثق من ذلك. ولكن إذا احتجت أي مساعدة...

لم تشأ أن تدعه يستمر فقالت: «عندما أدركت أن مهنتي كراقصة قد انتهت...».

قاطعها غاي وهو يمسك ذراعها: «لاحظت أنك تعرجين، ليس عليك أن تتحدثي عن ذلك إذا لم تشائي».

- عدت فتعلمت مهنة الطبخ.

تابعت حديثها بثبات متجنبة أن تبدو في نظره وكأنها ما زالت تلك الفتاة العنيدة الصلبة التي عرفها منذ سنوات. هزّ كتفيه قائلاً: «ما يهمني أكثر هو خسارتك المأساوية لمهنتك كراقصة. لا بد أن الأمر كان فظيعاً بالنسبة إليك».

- ليس أكثر فظاعة مما حدث لأبيك... ولعمتي أليس. مقارنة بذلك خسارتي لا تستحق الذكر.

- بل تستحق الذكر طبعاً. كنت في قمة تألقك عندما حدث ذلك. اعتدت أن أقرأ أخبارك في الصحف... ثم.. لم أعد أرى شيئاً.

فقالت بابتسامة جافة: «هذا صحيح، لكنني كنت أطول مما ينبغي».

- كلام فارغ... كل النقاد قالوا إنك كنت حلماً.

صدرت عن كايت ضحكة قصيرة مرغمة: «نعم، كان الرقص حلم أمي وليس حلمي. تلك الحادثة حرّرتني بشكل ما».

فقال بحيرة: «أحقاً؟».

- نعم، أتاحت لي فرصة القيام بما كنت أحب أن أقوم به.

- أتعنين تأسيس عمل خاص بك؟.

بدا واضحاً أنه وجد الفكرة مربكة، ولكن الدخول إلى دنيا التجارة بالنسبة إلى كايت حقق أحلامها، مهما بدت هذه الفكرة جنونية بالنسبة إلى غاي. أجابت: «هذا صحيح.. فكرت في البداية بأن أصبح طاهية، لكن ذلك لم يكن ملائماً تماماً لي. وذات يوم كنت أبحث على شبكة الإنترنت عن مكان أمضي فيه إجازتي، فخطرت لي فكرة أن أفتح وكالة للسياح هي عبارة عن موقع على شبكة الإنترنت. في البداية، كنت الموظفة الوحيدة، وبعدئذٍ انطلقت وكالتي السياحية «الإجازات الحرة» كالصاروخ، متجاوزة كل التوقعات. أخيراً، وجدت شيئاً أحببت القيام به.. شيئاً استمتعت به.

فقال بدهاء: «أراك تستعملين الأفعال الماضية».

فأجابت بسرعة: «لا، أبداً.. ما زلت أحب ما أقوم به إنما حان وقت التوسع الآن».

- والتوسع لا يعني دوماً توسيع العمل، بل يعني توسيع الرؤيا.

وافقته بحماسة لسرعة تفهمه للوضع: «بالضبط».

- ما هي خطتك إذن؟.

أدهشتها دقته وسرعته في اكتشاف ما تخطط له.

- ظننتك تريد أن تعلم ما حدث لي وليس لعملي.

لم تتحدث قط عن حادث الاصطدام، لكنه حالياً يبدو آمناً أكثر... لا، بل الخيار الأوحد. ورأت نظراته ترقّ وهو يحثها على المتابعة: «استمري يا كايت».

- كنت قد قبلت تحدياً...

وسكتت عندما اتخذت ملامحه مظهراً مألوفاً، لكنها عادت تتابع: «كان يومها عيد مولدي العشرين... ومع أنني كنت قد تجاوزت مرحلة الطيش والتهور...».

هزّ كتفيه بصمت منتظراً أن تتابع كلامها. راحت تشرح له أن قنطرة حديدية كانت مرفوعة خلف المسرح الذي تعمل فيه.

- وما كانت مغامرتك؟.

ترددت قبل أن تجيب: «عبرتها سيراً على الحافة».

شرد به الخيال لحظات عدة قبل أن يتصوّر وضعها ذاك ويتأوّه. لم يجد تفسيراً لما كانت تفعله على ذلك الارتفاع الشاهق وهي تسير بحذاء الرقص على أطراف أصابعها فوق حافة عرضها خمسة عشر سنتيمتراً.

- فجأة تعثرت بالحبال، ثم...

ظهر التوتر على ملامح غاي ومد يده ليسكتها: «يا له من حادث فظيع، نجاتك كانت معجزة».

فقالت بنعومة: «أعلم هذا».

- حسناً، ها قد عدت إلى فيلينوف الآن. أرجو أن تكون أيام مغامراتك قد انتهت حقاً.

بما يمكنها أن تجيبه؟ وعادت بأفكارها إلى عناقه فتساءلت ما هو تصنيف ذلك العناق على سلّم المغامرات؟

- حين يغامر الشخص لا يدرك أنه يقوم بمغامرة.

www.elromancia.com

- أنا أدرك ذلك. أحب أن ألقي نظرة على الدمار لأعلم من عليّ أن أرسل من العمال لإصلاحه.

* * *

كان غاي عند كلمته، كما أخذت تفكر وهي تقف خارج الكوخ، تراقب الدهان وهو يضع اللمسات الأخيرة على مصاريع النوافذ. صحيح أن أعمال غاي ألزمته بالسفر إلى خارج البلاد، إلا أن العمل بقي مستمراً كما وعدها تماماً.

وقفت بعيداً وتنهدت راضية، راضية لأنها رأت «البيت الصغير» من الخارج على الأقل، وقد بدا مرحباً بالزائرين. لكن الوقت حان الآن لغسل أظافرها والدخول إلى الكوخ، فالعمل الحقيقي لم يُنجز بعد. وشعرت بموجة من الحماسة حين تذكرت أنه لم يبق سوى أسبوع وبضعة أيام قبل أن يأتي أول زبائنها، وأسبوع واحد فقط على حفلة التدشين.

كان غاي قد أرسل لها رسالة قصيرة بخطه يقول فيها إنه غير واثق ما إذا كان بإمكانه الحضور في الوقت المناسب. فكرت كايت في أن قدومه لن يشكل أي خطر على مشروعها. فبالنسبة إلى غاي، التحسينات الكثيرة التي أدخلت على الكوخ كانت لمصلحتها وحدها، والحفلة التي ستقيمها لأهل القرية مسألة عادية تماماً... إنها فرصة تسمح لها بالتعرف عليهم بشكل أفضل.

فتحت كايت بابها الأمامي، وسرعان ما نبذت كل وساوسها وأخذت تستمتع برائحة النظافة. صعب عليها أن تتصور أن هذا المكان هو نفسه الذي أحضرها إليه غاي بعد الحريق. بعد أن استطاعت النظر إلى الأمور بموضوعية، رأت أن الدمار منحها فرصة للقيام ببعض التحسينات الحقيقية. فقد اقترح عليها عامل البناء أن تزيل الجدار القائم بين المطبخ والغرفة الصباحية ما جعل المساحة تزداد بمعدل ثلاثة أضعاف. وفي المطبخ، أضافت كايت عدداً من المقاعد الخشبية المريحة المغطاة بالوسائد ذات اللون البرتقالي

مع الأبيض والأزرق. أما الستائر البيضاء فقد أضفت جواً لطيفاً خفف من مظهر الأرض الحجرية. ولم يبق عليها سوى أن تفرغ أدوات المطبخ الجديدة من صناديقها فيصبح المطبخ جاهزاً.

- أصلحت لك موقد الغاز القديم.

كايت شكرت عامل البناء الذي حرص على جعلها تشعر بالارتياح، فانجز مهماته بسرعة.

تحقّق من توصيلات المياه، لكن الكهرباء كانت لا تزال مقطوعة. سألها وهو يشمّر عن ساعديه: «هل الكونت صديقك؟».

- نعم، هذا صحيح.

لم تعرف مراده من هذا السؤال، أما هو فنظر إليها قائلاً: «الكونت سيتحدث إلى السلطة عند عودته وبعدئذ تحصلين على الكهرباء».

ابتسمت كايت وقالت: «أنا واثقة من ذلك، لكنني قادرة تماماً على القيام بذلك بنفسي. كما أنني لا أعلم متى يعود الكونت».

- دعيني أخلّصك من تعاستك.

فهتفت بحفلة: «غاي، لقد أفزعتني!».

لكن دخوله بخطواته الواسعة من الباب المفتوح وقد بدا أكثر اسمراراً في بذلته الكتانية وقميصه الأبيض المقفل، كافٍ لإجفال أي شخص، كما طمأنت نفسها وهي تبتلع ريقها بصعوبة. قال وهو يربّت على ظهر البنّاء: «أحسنت يا جايلز.. يا له من تحول!».

ثم التفت إلى كايت وانحنى: «اسمحي لي أن أعتذر عن تطفلي، يا آنسة. ثم لتسببي بإجفالك». ثم أضاف ساخراً: «لم أعهدك من قبل جبانة يا كايت... وأنثوية إلى هذا الحد».

وأخذ يتأملها من رأسها حتى أخمص قدميها. بدا واضحاً أنه يستمتع

بتعذيبها. استقرت نظراته على ثوب العمل الفضفاض الذي ترتديه، ثم على قدميها الحافيتين. فقالت بفظاظة: «لو علمت أنك قادم لغيّرت ملابسي».

إلا أن غاي قال متلذذاً: «لا، تعجبني ثيابك. أرى أن «البيت الصغير» أظهر أحسن ما فيك».

أتراه يعني أنه يفضل أن يراها شعثة الشعر، قذرة أثناء قيامها بالعمل؟ توترت شفتاها وهي تنتصب في وقفتها: «لا تذهب إلى هناك، يا سيد...».

جاء الآن دور جايلز كي يخفل وقد بدا عليه الارتباك وهو يجد نفسه بين سيده الكونت وفتاة لا تحترمه. وكان البنّاء المسن قد قرر أن يغادر الغرفة، لكن كايت حالت بينه وبين الباب: «لا، يا جايلز. يجب أن تشاركنا في كوب من العصير، إنه طازج».

بدت على غير عادتها وهي تحاول شكر الرجل المسن على شهامته، فقال متردداً: «حسناً، إذا كنت تصرين...».

وأخذ ينقّل نظراته بينها وبين الكونت، فقال هذا الأخير: «طبعاً إنها تصر... نحن الإثنان نصر على هذا».

ثم وضع ذراعه على كتفي جايلز وقاده إلى أحد المقاعد المنجدة: «ستشاركني كوب عصير ثم تطلعني على أحدث الإشاعات والأقاويل».

وغمزه بعينه بعد أن رمق كايت بنظرة انتصار. راحت يدا كايت ترتجفان وهي تتناول إبريق العصير الذي وضعته في الحوض لتبريده.

- دعيني أساعدك.

لم تدرك أن غاي يقف خلفها قبل أن تسمع صوته. التفتت فرأت جايلز يجلس على المقعد بارتياح بينما أشار برأسه إلى الإبريق الثقيل الموضوع في الحوض قائلاً: «سأقدم أنا الشراب، فالإبريق يبدو ثقيلاً، دعيني آخذه».

- يمكنني أن أتصرّف.

- لست مضطرة إلى التصرف في وجودي.

وهمس في أذنها: «هيا كايت.. لا داعي للعناد فذلك يشعر جايلز بعدم الارتياح، أعطني الإبريق».

امتثلت لطلبه ووضعت الأغراض على الصينية، ثم اتجهت إلى البراد القديم كي تضع فيه اللحوم قبل أن تتبعه.

كان غاي قد سكب العصير فأخذت تنظر إلى جايلز وهو يتناول الشراب بجرعات كبيرة. توقعت أن يسرع في الشرب، فقد بدا واضحاً أنه يتمنى لو أنه في أي مكان عدا هذا الذي وجد نفسه فيه الآن.

ولكن عندما استند غاي إلى الخلف بارتياح ليأخذ أول رشفة، توقف جايلز عن الشرب وحدّق إلى كوبه بذهول: «هذا العصير لذيذ يا آنسة».

عندئذ، لمعت عينا غاي استحساناً أيضاً: «إنه جيد فعلاً يا كايت».

فقالت له: «حسناً، لا تظهر كل هذه الدهشة».

ومع ذلك شعرت بالسرور لاستمتاعهما بالعصير الذي جهّزته، وقالت وهي تدفع الصحون التي أخرجتها من البراد القديم: «تذوقا شيئاً من هذا. إنه يتماشى مع عصير الليمون، وأخبراني برأيكما. وكونا صادقين، إنها تجربة لما أود تقديمه في حفلة التدشين».

بدا الإعجاب على الرجلين وهما يلقيان نظرة شاملة على تلك المجموعة المختلفة الألوان من الصلصات والسلطات.

قال غاي بعد أن تذوق بعضها، وتبادل نظرات الاستحسان مع جايلز: «إنها لذيذة للغاية».

- آسفة لعدم تمكني من تقديم المزيد، فليس لدي وسائل للطبخ قبل أن يصلح جايلز الموقد القديم.

فقاطعها غاي: «ماذا بقي الآن يا جايلز؟».

www.elromancia.com

أجاب جايلز: «لا شيء هاماً في واجهة المبنى، يا سيدي الكونت، لكن لم يتم ايصال الكهرباء بعد. . . .».

فهتف غاي: «كيف يمكن هذا؟ تركت تعليمات قبل سفري بأن تكون إعادة الخدمات الرئيسية من الأولويات. لماذا لم تقولي شيئاً يا كايت؟ كيف كنت تتدبرين أمورك».

- لا بأس، لم يكن الأمر سيئاً كما تتصور.

- لكنني لا أفهم، كيف استطعت ذلك؟.

- مع نار الموقد والشموع التي أرسلتها لي بدا كل شيء على ما يرام.

- لكنني وقبل سفري طلبت من مكتب المزرعة إبلاغ المسؤولين أن «البيت الصغير» أصبح مأهولاً من جديد.

أتراه أوكل هذه المهمة إلى تلك السكرتيرة نفسها التي حاولت أن تمنعها من رؤيته؟ وقالت مترددة: «لا تقلق، سأتولى الأمر بنفسي، أنا واثقة. . .».

فهتف بها جايلز: «لكن ليس لديك ما يكفي من الوقت، يا آنسة».

وسرعان ما بدا عليه الندم وهو يدرك أنه أوشك أن يفضح سرّ خطتها في إقامة مضافة للتأجير. وشعرت كايت بالذنب لأنها حشرته في خطتها، هذه الخطة التي بدأت تخرج عن سيطرتها بسرعة. وضعت يدها على يده قائلة: «لا حاجة إلى القلق فيمكنني الاهتمام بهذا الأمر الآن بعد أن تم إصلاح الدمار».

فقال جايلز بقلق: «لكن سيدي الكونت بإمكانه أن يسهّل الأمور».

فقالت بحزم: «وأنا كذلك يا جايلز».

لم يبدُ عليه الاقتناع بأن أحداً يمكنه أن يسرّع الأمور كما يفعل الكونت فقال: «حسناً، حالما يرتب سيدي الكونت أمر وصول الكهرباء إليك، فسأعود لأساعدك مرة أخرى».

وتهيأ للرحيل فوقفت قائلة: «لا أستطيع التعبير عن مقدار شكري لك».

فقال لها مجاملاً: «كان هذا ألذ عصير تذوقته، يا آنسة. وكذلك بقية الأطباق، إنها لذيذة»!

وعندما ودعته إلى الباب وعادت، قال غاي: «أهي وقاحة مني أن أعرض عليك خدمات طاهيتي؟».

- لا، لا. . بل هو لطف منك.

واستندت إلى الباب تستجمع أفكارها. رغم أنها صاحبة «البيت الصغير» منذ ستة أشهر، إلا أنها لم تشغله سوى فترة قصيرة. ومع ذلك، كانت هذه المدة كافية لكي يقلب غاي حياتها رأساً على عقب. لكن أسوأ ما في الأمر هو أنها اعتادت في حياتها العملية أن تكون معتزة بنفسها وتضع كرامتها في المقام الأول. . . أما هنا، فكل ذلك لم يعد ذا قيمة وكأن شخصيتها وثقتها بنفسها تتراجعان.

- ما هذا يا كايت؟.

تبعت نظراتها نظرة غاي، فشعرت بمعدتها تغلي. كان عليها أن تعلم أن المسألة مسألة وقت، ولن يطول الأمر قبل أن يكتشف خديعتها. كان يقف أمام المرآة التي وضعها جايلز.

- أتعني المرآة؟.

- نعم. . . ما هذه؟ دار المرايا؟.

قالت بلهجة عرجاء، راجية أن يرضي هذا فضوله: «إنها تعكس الضوء بشكل أفضل».

إلاّ أن غاي لوى شفتيه بارتياب لكنه لم يقل شيئاً بل استدار يشمل موقد الطهي الفخم الجديد بنظراته: «حسناً، لا بد لي أن أقول إنك تجهزت جيداً. وهذا مطبخ فخم. . . بالنسبة إلى شخص يعيش وحده».

فقالت بسرعة: «أنا مصممة على استضافة الكثير من الناس».

قال وهو يتجه ليتناول بعض المقبلات من الطبق: «هذا لا يدهشني. مما تذوقته حتى الآن يمكنني أن أؤكد أن الدعوة إلى «البيت الصغير» سوف تثير حماسة كبيرة».

- هذا ما أتمناه بكل تأكيد.

قالت هذا وهي تتذكر بسرور عدد الحجوزات التي تلقتها حتى الآن.

- لكن المرايا تغطي نواح ثلاث من المطبخ، أليس هذا كثيراً؟ لا أراك تفكرين في افتتاح مرقص، أليس كذلك؟

توهجت وجنتاها احمراراً: «كلا بالتأكيد. أنا أعشق الأنوار وهذا كل ما في الأمر».

تشابكت أنظارهما للحظات قبل أن يحوّل غاي نظراته ويُخرج من جيبه مغلفاً، فسألته: «ما هذا؟».

- نسخة عن عقد ايجار البيت الصغير الذي ما زال ساري المفعول. فكرت في أنه من الأفضل أن تلقي نظرة عليه بما أنك لن تستطيعي رؤية محاميك قبل بعض الوقت.

- سألقي عليه نظرة في ما بعد.

- حسناً، والآن عليّ أن أذهب فقد غبت عن أعمالي مدة طويلة. سنتحدث عن هذه الأوراق يوماً ما على العشاء.

شعرت كايت بالتوتر، لكنها أومأت موافقة. وعندما خرج، تلهفت أصابعها لفتح المغلف لترى إن كان ثمة مشاكل جديدة تقف عائقاً في الطريق، فغاي لا يقوم بزيارة من دون هدف محدّد. مهما كان في هذه المستندات من معلومات، لا بد أنها خطيرة.

بدت ملامحه غامضة، وفكرت كايت في أنها لن تغترّ فتظن أنه جاء

ليسرق منها عناقاً.

في الواقع، لم يشر مجدداً إلى ذلك العناق الرائع ولو بنظرة أو ابتسامة... فيما هي تتساءل عما إذا كانت ستتمكن يوماً من نسيانه.

عندما أصبح غاي في الخارج، اشتدت قبضة كايت على المغلف، وأخذت تنظر في أنحاء المطبخ، علّها تراه بعيني غاي. أتراه تكهن بما تنوي فعله؟ هل اقتنع بتفسيرها بأنها تعشق الطهو، وتعشق أن يشاركها أصدقاؤها عشقها هذا؟ مهما كان ظنه، فسيعلم الحقيقة عاجلاً أم آجلاً.

في مكان ما خارج السياج سمعت هدير سيارته، ما بعث في نفسها موجة أخرى من الشعور بالذنب سرعان ما نبذتها. ما من شيء بينهما، حتى العناق لا يعني له شيئاً. كل ما في الأمر هو أنه رجع إلى عادته.. يغيظها بعناقه كما كان يفعل دوماً... ما عدا أنه لم يعد غلاماً.

عندما وصلت إلى مائدة المطبخ، كانت قد أخرجت المستندات من المغلف. لطالما كان العمل مجالها الذي تفوقت فيه، وهو مجال لا مكان فيه للمشاعر. اكتسحتها موجة من الارتياح وهي تجلس، لكنها لم تستطع أن تقرأ سوى الصفحة الأولى. ورغم كل جهودها لتركيز ذهنها على المهمة، وعينيها على الصفحة، كل ما استطاعت التفكير فيه هو غاي.

٥ - وتفتحت الجراح

- ميغان ! لا أصدق عيني!.

واندفعت كايت نحو صديقة عمتها أليس تعانقها وكأنها لا تريد أن تتركها أبداً. فقالت المرأة المسنة: «والآن، تراجعي خطوة إلى الوراء ودعيني أنظر إليك. دموع؟ ما هذا يا صغيرتي؟».

- إنها دموع الفرح لرؤيتك.

ومسحت دموعها، فالوقت ليس مناسباً لذرف الدموع. لكن، ومنذ عودتها إلى فرنسا بدا لها أن كل ما حولها تملكه الجنون. كانت سعيدة جداً لرؤية ميغان أوريللي التي ستصبح قائدة صف الفنون الذي قررت كايت افتتاحه. تملكتها البهجة والارتياح لمجرد سماعها لكنتها الإيرلندية المميزة، وشرعت تقول: «ميغان، تبدين..».

فقاطعتها ميغان: «أبدو سيئة السمعة كالعادة، أعرف هذا. هل إبريق الشاي على النار؟».

قالت هذا وهي تنظر إلى المطبخ ثم رفعت كيسها الكبير عن الأرض، فقالت كايت وهي ترى حال ميغان: «آسفة لا بد أنك مرهقة. تفضلي..».

أخذت ميغان تنظر من حولها في أنحاء المطبخ: «لقد أحدثت تغييرات كثيرة منذ كانت عمتك أليس تسكن هنا. كل هذه المرايا... ما الذي تخططين له، يا كايت؟ شيئاً شيطانياً كما أرجو..».

- فكرت في أنها ستنفع في التعليم، إذ تساعد الناس على رؤية ما أفعله

أثناء الشرح. أنت الشخص الثاني الذي يدلي بهذه الملاحظة.

قالت هذا باسمة وهي تضع إبريق الشاي على الموقد.

- كيف حال سيادته؟.

- كيف عرفت أنني أعني غاي؟.

فقالت ميغان وهي تخلع حذاءها: «هيا يا كايت، لا حاجة بك إلى الخجل. لا تخبريني أنكما لم تكونا منجذبين إلى بعضكما البعض في الماضي».

شعرت كايت بالسرور لأنها تدس رأسها في الخزانة لتحضر البسكويت فلن تتمكن المرأة من رؤية وجهها. قالت: «لا أدري ما تعنين».

فعلّقت ميغان ساخرة: «قد أكون عجوزاً، لكنني ما زلت أتذكر أن الشرر كان يتطاير بينكما عندما تأتيان إلى هنا في حداثتكما. ولا أصدق أنه سيتجاهلك بعد أن عدت إلى هنا نهائياً..».

- آه...

- أنت لم تخبريه!.

- ليس بالضبط.

- ألا تظنين أن الوقت حان لذلك؟.

- الأمر ليس بهذه السهولة، يا ميغان.

- لا تكوني غبية، الأمر سهل طبعاً. اجلسي وأخبريني عما حدث. أنا أعلم أن ثمة خطب ما. وإذا كنا سنعمل معاً...

- أنت محقة. علي أن أخبرك أن مغامرتي الأخيرة هذه قد لا ترى النور أبداً.

قالت ميغان من فوق كتفها: «ماذا؟ أراني جئت في اللحظة المناسبة، هذا أكثر خطورة مما ظننت. اسمعي، اشربي قهوتك ثم أخبريني كل شيء منذ البداية».

وعندما أخبرتها كايت بكل شيء قالت: «لكنك رأيت ما يكفي من العقود، فما الفرق بينها وبين هذا؟».

- إذا ما توخينا الدقة، فهذا ليس عقداً بل قائمة مواثيق. هذا أولاً، وثانياً.. الوثيقة الوحيدة التي قرأتها حتى الآن هي ترجمة...

فقاطعتها ميغان وهي تقضم الكعك: «وأين الأصل؟».

- عند المحامي. لا عجب في أنه متلهف للتحدث إلي...

- حسناً، فيما يهتم المحامي بهذه الأمور، لماذا لا نركز أنا وأنت اهتمامنا على أحدث مغامرة لـ «الإجازات الحرة» وهي «استراحات حرة»؟ متى يحضر أول نزلائنا.

- قريباً جداً.

- حسناً، لا تقلقي، حقيبتي هذه كحقيبة الساحر.

وفتحت حقيبتها ساحة لمعدات فنية أنهكها الاستعمال بأن تقع على الأرض: «لدي هنا ما يكفي لكي... من القادم الآن؟... هل هو زبوننا الأول؟».

قالت هذا وهي تشير إلى الباب، بينما انتقلت نظرات كايت بيأس إلى الفوضى على الأرض. إذا كان القادم غاي فهو لن ينتظر دعوة للدخول بل سيدخل على الفور كعادته... قفزت واقفة واندفعت إلى الباب آملة أن تصل إليه قبل دخوله، فتتمكن بشكل ما من تحويل اهتمامه. عندما وصلت إلى الباب كان قلبها يخفق بعنف، وفتحت الباب على اتساعه وهي تهتف كاذبة: «غاي، يا لها من مفاجأة!».

- هل أنت مشغولة؟ إذا كنت كذلك، فيمكنني أن أعود في وقت آخر...

وإذا بميغان تنادي قبل أن تستطيع كايت منعها: «نحن لسنا مشغولتين

بحيث لا نتمكن من رؤيتك. ما من أحد سواي هنا، يا صاحب السعادة..».

- دعك من الألقاب يا ميغان.

ومرّ بجانب كايت متجهاً نحو ميغان ليمسكها ويرفعها وكأنها طفلة خفيفة الوزن: «سبق وقلت لك يا ميغان أوريللي، إنني الوحيد هنا الذي يسمح له بإغاظة الآخرين...».

- بل الأحرى بإثارة البهجة.

أعلنت المرأة ذلك وهي تسوّي ثيابها لكنها عادت فوقفت بعيداً كي تشمله بنظراتها المتفحصة، ثم تابعت تقول: «بنطلون جينز أزرق وقميص عمل! كنت أظن أن الكونت الحقيقي يتجوّل في الأنحاء مغطياً رأسه بشعر مستعار فيما الخدم يسرعون في أثره..».

فقال بابتسامة عريضة: «ربما كان ذلك صحيحاً في قديم الزمان. أما اليوم يا ميغان، فحتى الكونت الحقيقي عليه أن ينزل إلى الأقبية ويتعرض للقذارة عندما يريد أن يخرج المخزون».

- إذا احتجت إلى أي مساعدة...

رفع حاجبيه بخبث بينما صفقت كايت الباب بعنف وكأنها تريد أن تعيد بعض التعقل إلى تفكير ميغان. ما كان لها أن تشجع غاي، بل أن تجد طريقة للتخلص منه قبل أن يستنتج شيئاً ما من عشرات فراشي الرسم المبعثرة على الأرض... لكن يبدو أن ميغان وقعت أيضاً تحت سحر هذا الرجل الأرستقراطي الفياض الرجولة... قال: «إذا احتجت إلى أي عون يا ميغان، فستكونين أول شخص أطلب منه ذلك».

على الرغم من تطمينه الحار، ظلت كايت تشعر بالقلق... وبالرغم من المودة البالغة الظاهرة في نظراته التي ظلت مركزة على وجه ميغان كانت شفتاه مزمومتين بقوة في مظهر متأمل واضح.

قال متظاهراً بالاهتمام: «ماذا تفعلين هنا يا ميغان؟ ظننت أنك استقريت في وظيفتك كمعلمة في الكلية. كما أن السنة الدراسية لم تنتهِ بعد».

ساد الصمت لحظة لكنها بدت دهراً لكايت. وعندما تكلمت ميغان كان صوتها قد فقد مرحه المعتاد فبدا جافاً غير مقنع: «تلقيت عرضاً أفضل».

وتحوّلت عيناها إلى كايت باعتذار فقال متعاطفاً: «ألا يسمح لك بالتحدث عنه؟».

- التفاصيل لم تتضح نهائياً بعد.

قالت هذا بارتباك وهي تبسط ذراعيها متصنعة البراءة والاستسلام. كانت كايت تعلم أن من الصعب على ميغان أن تكذب، لكن غاي لم يضغط عليها أكثر لحسن الحظ. وقف ينظر إليهما معاً شابكاً ذراعيه على صدره باسترخاء وكأنهما تلميذتان مشاغبتان وهو أستاذهما. بعدئذٍ، نظر إلى كايت قائلاً: «ربما بإمكانك توضيح الأمر، يا كايت».

قال هذا بخفة... أقرب إلى دعابة، قد تخدع أي شخص فيتخلّى عن حذره، لكنها لم تخدع كايت لحظة. بدا غاي أشبه بالكلب البوليسي الذي يقترب من هدفه. وفجأة قالت ميغان بصوت حاد: «كيف أصبحت الوالدة الآن؟».

- بخير كما أظن.

وتملك كايت الارتياح وهي ترى غاي ينجرّ إلى الحديث مع ميغان.

- لا يبدو عليك التأكد تماماً.

قالت هذه برقة وألفة تختصر السنوات التي عاشرت فيها أسرة غاي. أجاب: «نسيان أبي يتطلب وقتاً طويلاً».

- طبعاً. لا بد أن ذلك ينطبق عليك أنت أيضاً غاي.

أثبتت ملاحه كلامها وهو يجيب وقد تعلقت نظراته بنظرات كايت:

«كما أنها تفتقد السيدة أليس برودبنت أيضاً...».

كانت تلك النظرة المفتاح الذي أطلق مشاعر كايت وشكوكها أيضاً... لو كانت عمتها أليس على قيد الحياة، فما سيكون رأيها بخططها وخداعها؟ وذكّرت نفسها بأن حبها لعمتها أليس هو الذي جعلها تعود للإقامة في فيلينوف، فخططها للكوخ تختصر كل ما كانت عمتها تمثله... الحب.. التقدير.. السعادة.. المرح.. الراحة.. تحقيق الذات.

قالت بنبرة فولاذية لتعلمه بمدى انشغالها وتذكره بانشغاله أيضاً: «هل جئت لأمر خاص يا غاي؟»..

سألها وهو يرمقها بسخرية: «هل يفترض بي أن أطلب موعداً؟».

فقالت ميغان وهي تقف بينهما: «والآن، كفّ عن تضييع الوقت سدى يا صاحب السيادة».

رفع يديه باستسلام ساخر: «كما تشائين يا ميغان أوريللي. ومن أكون حتى أعصى أمر سليلة ملك إيرلندا الشهير».

- وأريدك أن تخفف من تزلفك هذا، فلدينا أنا وكايت الكثير لنفعله....

- إذن، لن تقدما لي قطعة من ذلك الكاتو اللذيذ...

أبعدت ميغان الطبق ووقفت أمامه تحرسه وهي تقول: «بل هو كايك».

لكن كايت قالت وقد رقّ قلبها: «طبعاً ستحصل على شيء منه».

كانت تعلم أنهما إذا ما طردتاه، فسوف يعود. وقبل أن تدرك ما يفعل، جلس غاي على كرسي وأخذ يلتهم قطعة من الكايك وهو يتنهد راضياً. أغمض عينيه متلذذاً: «لذيذ جداً، هل لي بقطعة أخرى؟».

فانقضت ميغان على الباب بسرعة خاطفة وفتحته له ليخرج: «لا، إياك.. لن أدعك تهرب من واجباتك بعد أن أصبحت مسؤولاً عن

www.elromancia.com

المزرعة».

كان صبر غاي على سخرية ميغان أحسن من صبر ميغان على إغاظته لها، كما لاحظت كايت. فقد وقف عند عتبة الباب وأمسك بيد ميغان يرفعها إلى شفتيه قائلاً: «سوق أنفّذ ما تقولين إذا قبلت أن تتناولي العشاء معي هذا المساء في القصر، يا آنسة أوريللي. واحرصي على أن تحضري معك مضيفتك الحلوة الآنسة فوستر. عندئذ، يمكننا أن نناقش إمكانية إعطاء دروس في الفنون».

ثم تابع وعيناه تتظاهران بالبراءة: «العقد بالنسبة لهذا الكوخ صريح تماماً، كما تعلمين يا ميغان. وأنا واثق من أنك لا تريدين تشجيع كايت على الشجار. هل أنا على حق يا آنسة أوريللي؟».

إزاء سخريته هذه، شخرت ميغان: «هذا الفتى لم يتغير».

قالت هذا متذمرة بينما كانت كايت تغلق الباب خلفه وهي تقول بهدوء بعد أن رأته يجتاز الطريق: «هذا «الفتى» كما تسمينه عمره حوالى أربعين عاماً وطوله ستة أقدام ولديه ثروة تقارب المليار يورو».

ناداهما غاي وكأنه شعر بأنهما تراقبانه: «أنا في انتظاركما الساعة الثامنة».

فقالت ميغان متذمرة شاعرة بأنها هزمت: «قولي شيئاً، ألست قلقة أبداً؟».

- أنا قلقة طبعاً، ولكن ليس بشأن عقد إيجار الكوخ فقط.

- ما معنى هذا؟

- ماذا أستطيع أن أفعل يا ميغان؟ علينا متابعة خطتنا وكأن كل شيء على ما يرام.

- غاي؟.

- سأخبر غاي في اللحظة المناسبة.

- لا تتركي ذلك حتى اللحظة الأخيرة.

- لن أفعل ذلك. والآن أتريدين الاستحمام؟ لدي ماء كثير رغم أن الكهرباء لم تصل بعد.

فهتفت ميغان: «لا يوجد كهرباء؟ يا إلهي! ماذا تظنين يا فتاة؟ لا يمكنك إدارة استراحة من دون كهرباء».

- حتى الآن تدبرت أموري بشكل جيد، وسوف أستمر بذلك إذا ما اضطررت. فلا أحد حتى الكونت دي فيلينوف نفسه يستطيع أن يمنعني من أن أجعل «البيت الصغير» أكثر أماكن العزلة نجاحاً في العالم.

فقالت ميغان بجدية مفاجئة: «حظاً سعيداً يا كايت. فبحسب معرفتي بغاي، ستكونين بحاجة إلى الحظ».

* * *

أرسل إليهما غاي سيارة تقلهما إلى القصر. ولم تكن تلك السيارة العادية التي يجول بها في المزرعة بل سيارة ليموزين فارهة مع سائق رسمي خاص.

كانت تأتي قديماً وهي ترتدي بنطلون جينز بالياً فقط لتبدو غريبة المظهر، أمّا الآن... حسناً، لا بأس في أن تلبس ثوباً أنيقاً فهي تملك المال الآن.. لقد فتح غاي شهيتها على ارتداء الملابس الأنيقة..

- لا بأس يا صغيرتي، لا تندمي على موعد العشاء هذا.

فأجابت كايت بجفاء: «لم أندم بعد».

كان غاي بانتظارهما أمام الباب الكبير المؤدي إلى القصر، وسترته الفاتحة اللون تبرز سمرة بشرته البرونزية. رأت كايت ساقيه أطول من أي وقت مضى بينما هو يهبط السلالم ليرحب بهما.

www.elromancia.com

فتح باب السيارة لكايت قبل أن يصل إليه السائق: «مرحباً بكما في قصر فيلينوف. ما أجمل أن نراك هنا يا كايت في زيارة اجتماعية وليس في فترة نقاهة وحسب».

فقالت تذكره وهما يتصافحان: «نقاهة قصيرة للغاية».

- لكنها كانت فترة ممتعة كما أرجو.

فقالت محاولة أن تبقي صوتها متزناً: «طبعاً، لطالما أحببت القصر».

- سترينه بأفضل حالاته الليلة إذن. فقد وزّعت الأنوار فيه بحيث تتلألأ عندما يشتد الظلام، سيكون المشهد رائعاً. وبالنسبة إليك يا آنسة أوريللي...

كان يتأبط ذراع كايت فمدّ ذراعه الأخرى إلى ميغان: «لقد دعوت صديقاً آخر، البروفسور جيلمان من معرض الفنون في باريس، وذلك لمناقشة تطورات الفن المعاصر معك».

رأت كايت تأثر ميغان الحقيقي فقالت وهي تشد على ذراعه: «هذا لطف منك يا غاي».

فهتفت ميغان: «لطف؟ بل هو رائع.. هل لديك فكرة عن البروفسور جيلمان يا كايت؟».

فقالت كايت تداعبها وذهنها شارد مأخوذ بعضلات ذراع غاي القوية: «لا، لكنني واثقة من أنك سوف تنيرينني».

والتفتت إلى غاي: «هل ستكون أمك معنا يا غاي؟».

- لم أعرف بعد.

والتفت إليها وفي عينيه كآبة: «أرجو أن تنزل من غرفتها عندما تعرف بقدومك. ولكن، حسناً.. سوف نرى، لن أضغط عليها».

بعد التعارف انسجمت ميغان من دون جهد في حديث طويل مع

البروفسور جيلمان. وتبيّن لكايت أن البروفسور هي امرأة متوسطة السن، غزا الشيب شعرها، ترتدي بذلة أنيقة ويلمع الذكاء في عينيها وهي ليست رجلاً مسناً كما تصورت كايت. قالت له وهما ينظران إلى المرأتين تصعدان السلم الرخامي ليتفرجا على مجموعته الفنية: «أحسنت العمل هناك».

فقال: «منحت لوحات أجدادي إجازة، فوضعت اللوحات القديمة في الأقبية، ووضعت مكانها مجموعة هامة من اللوحات العصرية...».

- عنيت بكلامي تقديم ميغان إلى البروفسور جيلمان، إذ يبدو أنهما منسجمتان في نواحٍ كثيرة.

فقال ببساطة: «أحب تعريف الناس ببعضهم بعضاً».

ثم التفت إلى كايت يتأملها ببطء ورضا، واستقرت عيناه على وجهها طويلاً: «شكراً لارتدائك هذا الثوب».

- ليس في ذلك صعوبة.

قالت هذا بشجاعة أكبر مما توقعت. لكنها أوشكت أن تذوب أمامه عندما رأت نظراته المتأملة. وإذا به يقول بخفة وتكاسل: «انظر إليها وهي تأتي... مرتدية ثوباً كالربيع».

- غاي... أنا...

- هل هذا الشعر لبليني؟.

- ظننته لشكسبير.

- سأحضر شراباً، أيتها الغبية.

- نعم.. أرجوك.

وعندما جرّها عبر القاعة، سألها:

- ألا تعجبك فكرة أن يسيطر عليك أحد... ولو لليلة واحدة؟.

سألها ذلك متحدياً وهو يخرج إلى الشرفة، فأجابت: «المساواة تعجبني

www.liilas.com

أكثر».

ودهشت حين لاحظت أن غاي أحب جوابها: «ما زلت كما كنت يا كايت».

- وهل يعجبك هذا؟.

فنظر إليها طويلاً: «ربما... نعم، ذلك يسرني كثيراً».

دغدغت كلماته حواسها وشعرت بأنها لم تعد تستطيع التفكير بعقلانية. وعلى الرغم من تحفظه الواضح بعد ذلك العناق بدا الآن وكأنه يقول إنه يريدها. أيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ لكن الجو من حولهما لا يشجع على مثل هذا الحديث، فالخدم يقفون بتحفظ في ظل الشرفة... ثم هناك ميغان... والبروفسور...

رفعت كايت رأسها فجأة عندما دسّ غاي الكوب في يدها. أتراها ستجن؟ أتراها فقدت سلامة تفكيرها؟ هذه ليست لعبة. إنه الكونت غاي دي فيلينوف، وهي كايت فوستر سيدة الأعمال الناجحة التي انتقلت إلى عالم مختلف عن عالم هذا الرجل الغامض الذي يجلس بجانبها.

يبدو أن أحلامها تقترح عليها أن تمسك بيده بكل بساطة وتتركه يقودها إلى حيث يريد.

هل هذا حقاً ما تريد؟ رجل مثل غاي لا يحترم المرأة التي تلقي بنفسها عليه. وكايت تعلم من أخباره التي تملأ الصحف أن عشرات النساء يرتمين بين ذراعيه وكلهن يلقين المصير نفسه، كما أخذت تذكر نفسها. تمنّت لو أن ثلجاً يسري في عروقها مكان الدم، ولو أن قلبها قُدّ من حجر. سألها وهو يتأملها بحرارة: «لماذا أراك متجهمة يا كايت؟».

- ربما لا تحب أن تعرف.

- بل أحب ذلك. ربما يساعدك كوب العصير...

لم يكن ثمة فائدة من الادعاء. فالاستقلالية جيدة في العالم الحقيقي، أما في هذه اللحظة، حيث تسود الأحلام، فهي خارجة عن نطاق الزمن. كل ما تريده هو أن يأخذها إلى قلب قصره الخرافي، إلى مكان مظلم ساكن.. إلى زنزانة انفرادية حيث يقيدها بحبال من حرير ويبقيها لنفسه إلى الأبد...

- العشاء جاهز يا سيدي.

- كايت؟.

انتبهت كايت وكأنها كانت في غيبوبة من النشوة، غيبوبة خطيرة. وعندما تأبطت ذراع غاي مرة أخرى أخذت تسير وقد ثارت مشاعرها إلى حد لم يعد ينفع في ضبطها قدرتها على التحكّم في ذاتها. من الصعب إخفاء حالتها هذه حين تتسابق أنفاسها السريعة مع خفقات قلبها. همس غاي في أذنها: «هل أنت بخير؟».

- بأحسن حال، لكنني أشعر ببرد خفيف.

أضافت جملتها الأخيرة حين تملكتها رجفة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. كان السير مع غاي أشبه بأخذ حمّام من المشاعر، كما أخذت تفكر.

قال وهو يُدخلها من أحد الأبواب: «سيُقدم الطعام على الشرفة الكبرى. يمكنك أن تري الأنوار من هنا الآن».

تمالكت كايت نفسها واستدارت. ما رأته كان مذهلاً حقاً.

- لم أر قط شيئاً بهذا الجمال.

ثم جلسا إلى المائدة وبعد قليل انضمت إليهما ميغان والبروفسور جيلمان وهما تتحدثان عن عرض الأنوار الرائع أثناء صعودهما الدرجات الحجرية المؤدية إلى الشرفة. سألتها ميغان بحذر وهي تجلس على كرسيها عند المائدة: «هل كل شيء على ما يرام؟».

- بأحسن حال.

فهمست ميغان: «لا تكذبي عليّ».

- حسناً، لا بأس.

ألقت كايت نظرة على غاي الذي كان مشغولاً بالحديث مع أحد الخدم، ثم تابعت تقول: «يمكنني أن أخبرك أنه عنيد جداً بالنسبة إلى تنفيذ القانون المتعلق بعدم قبول غرباء لقضاء إجازاتهم في المزرعة. الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أفلت بها من العقاب هي أن أقدم إجازات مجانية، مدّعية أن كل شخص هو ضيف شخصي لي...».

- هذه مسألة تحتاج إلى تفكير.

- ومن أين يأتي راتبك إذن؟.

- فهمت ما تقصدين.

- ولكن انظري إلى كل هذا يا ميغان، لا شيء يماثله في أنحاء أوروبا كلها. إنه أسطوري الجمال، لكنه مجدب كئيب.

فقالت ميغان وهي تتأمل مشهد الأضواء: «برأيي، إنه بحاجة إلى لمسة من كايت».

عندما أنهى غاي حديثه قالت البروفسور جيلمان: «الشيء الوحيد المفقود هنا هو الحشود».

- تماماً.

أجاب غاي بذلك وهو ينظر إلى كايت وكأنه يريد أن يتأكد من أنها سمعت قول البروفسور. وتابعت هذه الأخيرة غير واعية إلى ما يجري في الخفاء: «ما من ضرر من وجود أشخاص آخرين. المعذرة على وقاحتي، يا كونت لكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير في أنك وحيد للغاية هنا».

- جرت العادة في الماضي أن يأتي الكثيرون إلى هنا أثناء الإجازات، لكن من المؤسف أنه لم يعد ثمة مجال لمثل هذه الأمور الآن.

فقالت البروفسور: «يمكنني تفهم تحفظك هذا، فقد رأيت أماكن أثرية مثل هذه يتم التصرف فيها بشكل تجاري فظيع عديم الإحساس. ولكن من المؤكد أن فتح بعض الأماكن أمام الناس يمكن أن يرفع من قيمة المنطقة... إذ يمنحها مظهر المزرعة العاملة حقاً».

فقال غاي: «هذا صحيح. لكنني واثق أن بإمكاني أن أغري الناس بالعودة إلى هنا».

- برأيي، إن وجود منزل أو منزلين لقضاء الإجازات الأسرية يضفي بعض النكهة على هذا المكان الرائع الذي لا يخلو من الكآبة لانعزاله. على أيّ حال، هناك أناس مستعدون لأن يقوموا بمزيد من الجهود في المدى القصير...

فقال غاي بجفاء: «مثل الآنسة فوستر».

فقالت البروفسور وهي تلتفت إلى كايت: «حقاً؟ لم أكن أعلم أنك تعيشين هنا».

- لدي منزل الإجازة الوحيد الباقي في المزرعة.

التفتت البروفسور إلى غاي بفضول: «أهذا صحيح؟».

فأجاب ببراءة: «أعتقد أن كايت لديها بعض المشاريع المبتكرة للمكان».

فالتفتت المرأة إلى كايت: «مشاريع؟ للأعمال؟».

لو كانت البروفسور جيلمان شخصاً آخر، لظنت كايت أن غاي أطلعها على الأمر. نظرت عبر المائدة إلى ميغان علّها تغيّر مجرى الحديث، إلا أنها لم تفلح هذه المرة. وقال غاي بجفاء: «لماذا لا توضحين ما تنوين فعله في «البيت الصغير» يا كايت؟ أرى أنك تحبين أن تعلمي المزيد يا بروفسور جيلمان».

آه... لا... فكرت كايت وهي تتجنب الشرك بدهاء قائلة بهدوء: «يسرني يا بروفسور جيلمان أن أرسل لك بعض التذكارات عندما نبدأ

www.eromancia.com

العمل».

- سأتطلع بشوق إلى تلقيها.

وعندما استعدت البروفسور للرحيل، قفزت ميغان واقفة هي أيضاً: «أتمانعين في أن أشاركك سيارة الأجرة يا بروفسور جيلمان؟ أخشى ألاّ أكون رفيقة جيدة، فقد بدأت عيناي تؤلمانني، وأخشى أن يكون ذلك بداية صداع».

ونظرت معتذرة إلى كايت، فقالت هذه وهي تهم بالوقوف: «هل آتي معك؟».

ردّت ميغان وهي تضغط على كتفها لتعيدها إلى كرسيها: «لا ضرورة لذلك لأنني سأصعد إلى غرفة النوم مباشرة، فهذا يخلصني أحياناً من الأعراض كافة، ويمنع تفاقم الصداع».

فقال غاي: «سأنادي سائقي حالاً».

إلا أن ميغان ألحّت قائلة: «لا، لا تزعج نفسك. إنها دقائق فقط وأصل إلى الكوخ، وأنا واثقة من أن البروفسور جيلمان لا تمانع...».

- طبعاً لا أمانع...

استدعى غاي الخادمة: «هل لك أن ترافقي هاتين السيدتين إلى حيث تحضران معطفيهما؟».

عادت كايت تقول وهي تهمّ بالوقوف: «وأنا أحب أن أذهب معهما».

فوضع غاي يده على ذراعها يمنعها: «أرجوك لا تذهبي، لأن أمي قد ترغب في النزول لرؤيتك ثم...».

فقالت كايت من دون أن تعلم إلى أي ناحية تلتفت: «آسفة.. سأبقى طبعاً، فلو كان هناك أقل فرصة...».

وسكتت ثم وضعت يدها على قبضته المرتاحة على المائدة قبل أن تقول:

«لا بد أن الأشهر الأخيرة كانت فظيعة بالنسبة إليك فقد تحمّلت مسؤولية المزرعة مع أنك كنت لا تزال تتألم لخسارتك الفظيعة».

أجاب غاي بعد لحظات وقد التوت شفتاه بمرارة: «استلام العمل لم يكن شيئاً يا كايت، فهذا هو عملي. ولكن فقدان أبي...».

وأطلق آهة طويلة مرتجفة قبل أن يستطيع الكلام: «حادث الاصطدام، عمتك أليس...».

ومسح عينيه بيده وكأنه يحاول أن يمحو الذكريات المؤلمة: «كل ذلك كان فظيعاً للغاية... وسريعاً... ما زلت لا أصدق أنه رحل».

وتاهت عيناه عبر الشرفة لا تريان شيئاً فوضعت كايت يدها على ذراعه قائلة: «هل يخفف عنك الحديث عن ذلك؟».

فردّ باكتئاب: «أعرف أن هذا لن يعيد أبي... كم كنت أحبه يا كايت».

قالت برقة: «أعرف هذا، وأنت ما زلت تعاني من الصدمة يا غاي، وسيمضي وقت طويل قبل أن تضع خطة تتمكن فيها من مواجهة أمور فظيعة... غير متوقعة».

أومأ برأسه موافقاً: «والآن يبدو أن صحة أمي تتراجع».

فقالت مفكرة: «ربما هناك أمل في أن تستعيد حماسها للحياة».

- أتظنين ذلك حقاً؟.

فكرت لحظة ثم قالت: «لعلها تشعر بالضياع... لا تعرف كيف تستمر في الحياة من دون أبيك. لا بد أنها ترى أنّ نسيج حياتها تمزق. ولكن إذا وجدت هدفاً جديداً...».

- ولكن كيف يا كايت... كيف؟.

- لست واثقة بعد، ولكن إذا سمحت لي فسأحاول أن أساعدها.

عندما عادت ميغان والبروفسور جيلمان، اضطرا إلى التوقف عن

www.elromancia.com

الحديث. لم تشعر كايت بالزهو حين ألقت عليها البرفسور جيلمان أسئلة عدة بالنسبة إلى خططها للمستقبل بل أجابتها بكل الثقة بالنفس التي تجعلها تشعر بالرضا. والسبب في ذلك برأيها، هو غاي. كان دوماً برجاً من القوة ليس بالنسبة إليها وحسب بل لأسرته ولكل من يعرفه، وقد كشف الليلة لها عن جراحه الأكثر خصوصية، فكان اتصالهما ببعضهما البعض أعمق من أي وقت مضى. وفكرت في أن جراحه تلك قد لا تشفى أبداً من دون لمسة رعاية حقيقية.

٦ - متمرّدة أم عاشقة

قال غاي لكايت بعد أن لوّحا للبروفسور مودعين: «لا شك في أنك مسرورة من نفسك لأنك تملّصت من سؤال البرفسور جيلمان عن مشاريعك هنا».

قال هذا وأمسك بمرفقها يصعد معها الدرجات. لم يكن هذا وقت التلاعب بالحقيقة، إذ ما زال لديها أمل في أن تجتمع بأمه، والجوّ السيء بينهما يجعل من هذه المقابلة مستحيلة. قالت وهي تجاهد لتبقي ذهنها صافياً، بينما حواسها تلتهب للمسته: «هذا ليس تملصاً، إنه مجرد حسن تصرّف، وأنا لا أتوقع منك أن تخبرني عن معاملاتك السرية. وإلى أن أصبح مستعدة لإعلان الأمر بين الناس، عليك أن تكتفي بالقليل الذي تعرفه».

- والذي هو لا شيء.

قال هذا بصوت مطاطي أحدث رعشة في كيانها. وانتظرت كايت إلى أن تحوّل الارتياب في عينيه إلى ابتسامة استقرت على وجهها فقالت: «سوف يحدث ذلك تغييراً كبيراً بالنسبة إليك يا غاي».

جعلها الارتياب تعود إلى الدعابة الخفيفة التي كانت دوماً تقرّبها منه في الماضي.

- هذا ليس مزاحاً يا كايت، فقد انتهى زمن الألاعيب. ثم تلك العقود... أمنعك من تأسيس عمل في أرضي.

- تمنعني؟.

www.elromancia.com

اشتدّت قبضته على ذراعها، فارتجفت وهي ترى شيئاً خطيراً في عينيه. قال بخشونة وهو يشدها إليه: «اسمعي يا كايت، مهما فعلت فأنا مستعد لك».

قالت متحدية: «آه، أحقاً؟».

ردّ بسلطة فطرية: «نعم، حقاً.. وستفعلين ما أقوله لك».

كان عليها أن تبتعد عنه حالما رأت ذلك التعبير في عينيه. كانت تعلم أن عليها أن تكافح، لكن يديه ماهرتان للغاية وتعرفانها جيداً، كما أنها أمضت فترة طويلة بالانتظار. بعد أن سمّرها بغطرسة عينيه الملتهبتين، شدّها إليه بقوة، لكنه لم يكن بحاجة إلى ذلك، فقد ارتمت بين ذراعيه بكامل إرادتها وشوقها، فتملكتهما مشاعر محمومة مدهشة. لكنه تمتم بعد لحظات وهو يبعدها عنه: «تعالي نذهب من هنا».

أنزل ذراعيها عن رقبته، وأمسك بهما ثم أخذها إلى الحديقة مرة أخرى. كانت النوافير تعزف أنغاماً هادئة مسكّنة، والجو يعبق بأريج الزنابق. سألها بجفاء: «ما رأيك بهذا المكان؟».

- إنه مليء بالغموض.

فتح باباً من خشب السنديان كشف عن سقيفة متألقة بالأنوار، حيث تقوم مدرّجات تحمل نباتات تنتظر نقلها إلى أحواض الزهور في الخارج. سمعها تشهق فالتفت إليها قائلاً: «هذا مختلف عما توقعته، أليس كذلك؟».

- هل أنت واثق من أنك لم تحضرني إلى هنا لتسجنني ثم تلقي بالمفتاح بعيداً؟.

فنظر إليها: «لم أفكر في ذلك فلا تغريني بفعله».

عندما ابتدأ يبتعد عنها صاحت من دون تفكير: «إلى أين تذهب؟».

- لن أتأخر فابقي هنا، هل أنت خائفة؟.

ولوى فمه الجميل ساخراً فقالت: «طبعاً لا».

مع أن أعراض الخوف ظهرت عليها إلا أنها نظرت إليه متحدية بينما تزايدت خفقات قلبها، فقال غاي وهو ينحني ساخراً: «إذا سمحت لي بعدة لحظات».

نظرت كايت حولها، فرأت صفوف النباتات تمتد إلى ما لا نهاية، لكن ما من زوايا مظلمة. وبالتالي، لا حاجة بها إلى التوتر والخوف، كما حدثت نفسها وهي تهمهم بأغنية من دون نغم. لكن، ومع مرور الدقائق، فكرت عدة مرات في صعود السلالم لتعود فتخرج إلى الهواء الطلق.

- شكراً لانتظارك لي.

استدارت عند سماعها صوت غاي قبل أن تطلق صرخة قصيرة: «الكونتيسة دي فيلينوف؟».

ثم سارعت إلى جانب غاي حيث وقفت الكونتيسة متكئة على ذراع ابنها، لكن محاولتها إداء تحية رسمية باءت بالفشل عندما جذبتها الكونتيسة لتعانقها بحرارة.

- أشكرك كثيراً على حضورك إلى القصر ياعزيزتي كايت. بعد الحادثة...

وسكتت الكونتيسة فجأة وهي تشير بيدها لتعبر عن عدم استطاعتها التحدّث عن تلك المأساة.

- أنا أترك غرفتي فقط كي أحضر إلى هنا لأرى نباتاتي، وفكر غاي في أنني قد أكون في طريقي إلى هنا. إنه وقتي المعتاد.

كانت تتحدث بصوت أجش مليء بالمشاعر فاندفعت كايت تقول: «ولكن ليس بإمكانك أن تبقي منعزلة بهذا الشكل، يجب أن تأتي إلى الكوخ وتزورينني».

ثم أمسكت يد السيدة العجوز بقبضة حازمة وضغطت عليها مشجعة، فقالت الكونتيسة معتذرة: «أنا لا أترك القصر أبداً، فأنا لا أشعر بالأمان منذ الحادث».

- ستشعرين بالأمان معي.

فقالت الكونتيسة بحزن: «سنرى. هل لك أن تعيدني يا غاي؟ تعالي معنا يا كايت، سيأخذك غاي إلى بيتك حين أذهب إلى غرفتي».

رفعت كايت يد الكونتيسة إلى شفتيها وهي تقول بخجل: «لقد افتقدتك...».

مرّت الكونتيسة بيدها على شعر كايت ثم أخذت تتأمل وجهها: «وأنا كذلك افتقدتك، يا عزيزتي كايت.. أكثر مما تتصورين».

* * *

- تبدين وكأنك فقدت قرشاً ثم وجدت دولاراً.

هتفت ميغان بذلك وسط قرقعة الأواني في الحوض في الصباح التالي. لامست كايت وجنتيها وهي تتذكر زيارتها للكونتيسة التي عوضتها عن عدم ضبطها لنفسها مع غاي. وبما أن أمه كانت تشغل ذهنهما، لم يغظها أثناء رحلة العودة إلى بيتها. أشرق وجه ميغان لسماعها خبر لقاء كايت بالكونتيسة. وعندما أخبرتها كايت أن الزيارة كانت قصيرة وغير عادية، قالت بحكمة: «قد تكون الزيارة قصيرة، لكنها أول درجة على سلم الشفاء. والآن، علينا أن نقنعها بزيارتنا في الكوخ».

سألتها كايت عن صداعها رغم أنها بدت في صحة جيدة، فقالت: «دعك من ذلك. هل ما أراه في عينيك الخضراوين هو وهج محموم؟ وهل نجحت حيلتي الصغيرة؟».

- حيلتك الصغيرة؟.

- نعم، فقد ظننت أنني إذا تركتك معه...

فهتفت كايت غير مصدقة: «هل تركتني عن قصد؟ وكيف تفعلين هذا؟ كيف تتركيني وحدي معه؟».

- لأنني أفسدت كل شيء من قبل بنثري تلك الفراشي على الأرض... لهذا ظننت أنني إذا تركتكما وحدكما، فسوف تحلان مشاكلكما.

تتالت على ملامح كايت مشاعر الدهشة ثم التسلية وهي تدرك ما كانت ميغان ترمي إليه: «ميغان، لو فعل هذا شخص غيرك...».

قاطعتها ميغان بخشونة: «حسناً، لم يكن شخصاً غيري».

فعانقتها كايت قائلة: «أعلم هذا، فأنت ما زلت سيئة كما كنت دوماً».

- هذا ما أرجوه.

- ولكن لمعلوماتك الخاصة... لم يحصل شيء بيننا.

قالت كايت هذا بفتور. وهذا كل ما كانت مستعدة للاعتراف به رغم نظرة ميغان إليها بعينين ضيقتين كالعادة. وشعرت بالامتنان لأن غاي تمكن من التحكم بتصرفاته على عكسها، ما جعلها تتصرف بكل هذه الكبرياء العنيدة.

- هذا مؤسف.

- أنت امرأة صعبة، يا ميغان أوريللي، إغواء غاي ليس الحل.

- ربما ليس لك، لكنه كذلك لكل امرأة على وجه الأرض.

- إنه لا يريدني، سبق أن قلت لك ذلك. إنه يعبث معي فقط كعادته دوماً. وإذا ما جاريته في لعبته من باب الخطأ في الحكم، فكيف تظنينه سيتصرف عندما يكتشف أنني خدعته؟.

- وهل تظنين حقاً أن بإمكانك أن تخدعيه؟.

- حسناً، يمكنني أن أحاول.

قالت هذا وقد شعرت فجأة بالكآبة، وهي تتأمل ضخامة المهمة التي تنتظرها.

- ألم تحاولي أن تقنعيه؟.

ردّت آملة أن تبدو أكثر ثقة مما تشعر به في الواقع: «لا تخافي، سأفكر في مخرج».

- طبعاً ستفعلين هذا، يا صغيرتي... طبعاً.

رن جرس هاتف كايت الخلوي. فترددت لحظة، ثم التقطته وبعد فترة من المهمهة قالت ميغان: «حسناً؟ من المتكلم؟».

فقالت كايت بصوت متوتر ملؤه الدهشة والسرور: «إنها السيدة دبليس. الكونتيسة تسأل إن كان بإمكانها أن تأتي لزيارتنا».

فانفجرت ميغان تقول بحماسة: «قلت لك إنها تصعد الدرجة الأولى نحو الشفاء، شكراً لك».

فقالت كايت: «الفضل لا يعود إليّ، فغاي هو الذي جمعنا معاً».

- لم تخرج تلك المرأة المسكينة من بيتها منذ الحادث، وقد مرّ عليه الآن أكثر من ستة أشهر.

- قلقي عليها بقدر قلقك.

- علينا أن نعالج نفسيتها... أحضريها إلى هنا ثم...

كانت عينا ميغان ترقصان حماسة، وكرهت كايت أن تعيدها إلى الواقع: «أترين أن علينا أن نكسب ثقتها؟».

فوافقت ميغان بحرارة: «نعم، ولما لا؟ ربما استطاعت أن تقنع غاي بمشروعك».

قالت كايت بحزم: «لا، آخر ما تحتاجه والدة غاي هو أن نجرها إلى نزاع بيننا».

فقالت ميغان بازدراء: «أف.. لن يسبب ذلك أي ضرر».

- ربما.

تمتمت كايت بذلك غير مقتنعة، متسائلة عما إذا كان الضرر سيلحق بصداقتها معه. عندما ورثت البيت اعتبرت أنّ مساندة غاي لها مسلم بها، أما الآن فهي ترى مدى تهوّرها حينذاك. لكن آخر ما كانت تنتظره منه هو أن يحرمها من حق تطوير الكوخ كما تشاء. وفجأة، بدا لها وكأن محبة عمتها أليس قد ترتد فتعطي عكس النتائج المرجوة وتكون السبب في إبعاد غاي عنها.

- لا أستطيع أن أدّعي أنني لا أعلم شيئاً عن العقد. ولكن لأكون صادقة معك يا ميغان، لم أقرأ العقد بإمعان بعد....

فانفجرت ميغان تقول: «ماذا؟ هذه ليست شخصيتك، يا كايت. لا بد أنك إما مريضة وإما عاشقة».

- لست بحاجة إلى قراءته كي أعلم.. فقد أصدر غاي ما يكفي من التحذيرات، وأنا واثقة من أنه مصمم تماماً على فرضه بالقوة.

- دعك من هذا، إنه معتاد على إصدار الأوامر وحسب ويتوقّع الطاعة من الآخرين. لقد استغنى عن صحبتك حوالى عشر سنوات، يا كايت. وعليه الآن أن يتعوّد على هذه الصحبة وعلى قضاء أوقات سعيدة مرة أخرى.

أطلقت كايت ضحكة جافة من دون مرح، فهي تعلم أن الأمر لن يكون بهذه السهولة. وبالطبع، لا فكرة لميغان عن مدى قوة عقل غاي واستقلال رأيه عندما يصمّم على أمر ما. لكنها تذكرت الآن أمراً جعل وجنتيها تحمران، وسرعان ما لاحظت ميغان ذلك فسألتها:

- كيف تصرّف غاي؟... تعرفين ما أعنيه... الليلة الماضية.

- لم يفتك شيء منذ عدت بالسيارة إلى هنا الليلة الماضية.

www.elromancia.com

- أظن أن سيارة الأجرة، مهما كانت مريحة، لا يمكن مقارنتها بسيارة غاي الليموزين.

- لقد استمتعت بالسهرة الليلة الماضية، أليس كذلك؟

- لا تحاولي أن تقولي إنك لم تستمتعي بها.

واجهتها ميغان بذلك بدهاء، ثم رفعت حاجبيها عندما رن هاتف كايت الخليوي مرة أخرى. رأت ترددها فسألتها: «ألن تجيبي؟».

وعندما رأتها تنهي الاتصال، قالت: «لا بد أنك تتقنين فن الاتصال الهاتفي الصامت. والآن، هل أقسمت يميناً على الصمت؟».

- آسفة.

تمتمت كايت بهذا بذهن شارد وهي تفكر في المكالمة الهاتفية. بدا غاي موجزاً في كلامه، يريد الاطمئنان على أنها استمتعت بالسهرة... لاحظت كايت في صوته رنة لم تسمعها من قبل... رنّة من الصعب تفسيرها. لكن استعداده لأن يساعها كان بقدر نملة صغيرة في كومة من الرمل. وكأنه اعتبر أنّ من المسلم به إطاعة أوامره وأنّ عليها ألاّ تنشىء عملاً في الكوخ. على أيّ حال، ما الذي يجعلها تفعل ذلك؟ فقد ربحت كثيراً من المال من أعمالها السابقة. لكن «الإستراحات الحرة» بالنسبة إليها هي أكثر من مجرد مغامرة تجارية، إنها رسالتها لإعادة الحياة إلى الكوخ... لإصلاح المكان الذي أنشأته عمتها أليس ذات يوم.. ولإعادة بناء كل ما فقدته منذ ستة أشهر عندما جاء والد غاي ليأخذ العمة أليس إلى القصر في سيارته الجديدة ثم فقد قدرته على التحكم بها... ذلك كله أصبح من الماضي، أما عين غاي فهي على المستقبل، وكايت تعلم أنه لا يسمح للعواطف باختراق خططه العملية.

وفجأة شعرت بأن عليها الابتعاد لكي تحاول أن تفهم هذا كله. وقالت لميغان شاردة الذهن: «أتمانعين لو خرجت أتمشى؟ لن أتأخر».

- تأخري قدر ما تشائين. لديّ الكثير لأقوم به هنا.

ذهبت كايت إلى المكان الذي استمتعت فيه مع غاي بأول نزهة في الخلاء بعد عودتها إلى «البيت الصغير». شعرت أنها بحاجة إلى الانفراد بنفسها، وكان في الكوخ وحدائقه الجميلة ما يبعث على الارتياح.. حدائقه التي تمتد إلى النهر غدت بهجة للنظر بعد أن امتدت إليها يد المحبة والعناية مرة أخرى. لم يكن عليها سوى أن تمرّ فيها لكي تشعر بالانتعاش والسكون.

تذكرت الأيام الطويلة التي كانت تمضيها في النظر إلى غاي من بعيد وهو يتحدث إلى أصدقائه، والإستماع إلى وقع صوته وهو يرتفع وينخفض بين ضحكات الفتيات المفتونات. كم شعرت بالكره نحوهن... ما زالت تتذكر الفتيات الجميلات الناضجات المحنكات وهنّ يتنافسن على جذب انتباه غاي، بينما هي لا تزال بتاتاً صغيرة تشبه الصبيان وقد خالط العشب شعرها. لكن صوته كان يهدئها ويبعث السكينة في نفسها برنينه ومرحه. والآن، منذ حديثهما في القصر، جذبها إليه شيء أكثر عمقاً من رنين صوته. أصبح بينهما نوع من المودة والإلفة لم يكن موجوداً من قبل، ورافق ذلك تفهم زاد من شوقها إلى تحويل صداقة العمر إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير. لكن إذا كان غاي مصراً على اعتبارها تلك البنت الصغيرة التي تشبه الصبيان، فلن يحدث ذلك أبداً. هزت رأسها وهي تدرك مدى حماقتها.

عندما وصلت كايت إلى المكان الذي تقصده، كادت تتصور أن الزمن لم يمر على الإطلاق، وأن غاي قد يظهر في أي لحظة على رأس مجموعة من أصدقائه. خلعت حذاءها من قدميها. ثم أخذت تختار نوعاً من الأعشاب وتقتلعها، لتستلقي بعدئذ على ظهرها، وتغمض عينيها وتمضغ تلك الأعشاب متأملة.

- بماذا تفكرين؟.

- غاي!.

قالت مزهوة بنفسها لما بدا عليها من اتزان: «لا، طبعاً لا أمانع».

تنهد غاي راضياً وهو يلقي بقميصه جانباً ثم يتمدد بجانبها: «هذا حسن».

تساءلت كايت إن كان لديه فكرة... أي فكرة على الإطلاق عن تأثيره فيها. ونظرت خفية إلى روعة جسده.

شهقت حين غيّر وضعه، وفكرت للحظة متهورة، بأن تضع رأسها على كتفه... لكنها أدركت أنه سيقابلها بالسخرية والمزاح، فعادت ووضعت رأسها على العشب... قريبة منه بما يكفي لتسمع تنفسه ولكن بعيدة بما يكفي للتمسك بما بقي لديها من عقل. قال بكسل وكأنه يبذل جهداً ليتحدث: «وجودك في القصر الليلة الماضية كان حسناً. هل استمتعت بذلك؟».

هل استمتعت بذلك؟ كيف تخبره؟... قالت بعد لحظة صمت: «كانت لحظة دخول أمك رائعة».

- هي التي أرادت رؤيتك، أؤكد لك ذلك.

- كما أن الطعام كان لذيذاً، والأنوار أضفت على الحدائق جواً رائعاً. لكنك تعلم ذلك طبعاً.

فقال وهو يمرّر بعض العشب على رقبتها: «هذا حسن، لأنني أفكر في أن أدعوكما مرة أخرى».

- أحقاً؟.

التفتت تنظر إليه وقلبها يخفق، فقال غاي: «حقاً، لأنني أفكر في أن أريكما الزنزانات هذه المرة، ما رأيك؟».

- أهي تلك الزنزانات التي رأت ميغان أنه ينبغي أن يسجنوك فيها؟.

- هي نفسها.

ظللت عينيها بيديها وهي تنظر إليه. رأته أكثر وسامة مما تعهده وأكثر جاذبية بكل تأكيد.

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لا، لا تنهضي، فأنت تبدين غاية في الارتياح... سعيدة وراضية للغاية... هل أنت سعيدة يا كايت؟.

لم تستطع أن تمنع نفسها من العبوس لشعورها بالذنب.

- ألست كذلك؟.

سألها برقة ما زاد في شعورها بالذنب، فقالت: «غاي، المستندات...».

أرادت أن تنهي الأمر هنا والآن.

- ليس الآن. كفاني عملاً هذا النهار.

ورأت التوتر في ملامحه فلاذت بالصمت، لتقول بعد لحظة: «ما الذي جاءك بك إلى هنا؟».

لاحظت أنه كان يمتطي جواده لفترة طويلة، فالغبار يغطي قميصه. خلع قفازيه ورماهما على الأرض بينما استقامت هي لتجلس، لتجد نفسها أمام ساقين مفروستين إلى جانبها. قال: «أنا سألتك أولاً».

جفّ حلقها، فقد بدا صوته حازماً آمراً وضاقت عيناه وهما تتأملانها. عندما أخذت تحدق إلى الشمس لكي تتمالك نفسها، ركع على ركبتيه بجانبها وأمسك بيديها وهو يقول بابتسامة ساخرة: «لا داعي لكل هذا القلق، فهذا يوم جميل وعليك أن تشعري بالسعادة».

- أنا سعيدة.

همست بذلك وهي تدنو منه، شاعرة بخفقات قلبه الثابتة على وجهها.

قال وهو يبعدها ليتلمّس أزرار قميصه: «هل لديك مانع إذا ما خلعت قميصي؟».

قال هذا مداعباً وهو يمرر العشب على ذراعها العارية. لوى شفتيه راضياً وهو يرى ارتعاشها، وقال مسروراً: «أما زلت حساسة للغاية يا كايت؟».

كانوا يسمون ذلك «دغدغة» منذ سنوات، و «الدغدغة» كلمة محدودة لا ضرر فيها. لكن ما تشعر به الآن هو أكثر من ذلك، كما أدركت كايت حين اجتاحتها موجات من الإثارة أطاحت بحواسها. قالت بصوت أبح راجية أن تحوّل انتباهه: «حدثني عن زنزاناتك».

ثم أراحت رأسها على ذراعها المثنية وانتظرت... توقعت منه أن يزخرف تخيلاتها بأخبار مثيرة. على أي حال، لم يسبق لها أن زارت تلك الزنزانات.

- إنها مظلمة، هادئة وجافة.

قال هذا برقة بالغة وهو يعود بانتباهه إلى رقبتها ليمرّر عليها العشب مدغدغاً، بعد أن أزاح شعرها الأحمر الذهبي الناعم جانباً وهو يتابع: «ودافئة ومنعزلة تماماً».

- وماذا يحدث فيها هذه الأيام؟.

قال يجيبها: «هذا يتوقف على من يقيم فيها في كل مرة».

حبست كايت أنفاسها. إنها تشعر بأنفاسه الحارة على أذنها تشعث شعرها وتلامس بشرتها...

- هل نذهب كي نسبح؟.

- نسبح؟.

واهتزت بعنف منتبهة من أحلام اليقظة، ثم انقلبت نحوه وحدّقت إليه بدهشة. لكن تصرّفها هذا كان خطأ فادحاً، لأن غاي أصبح الآن مشرفاً عليها ولا مكان آخر تنظر إليه سوى عينيه مباشرة. لم يكن عليه سوى أن

ينحني قليلاً ثم... قال: «أظن أن المياه الباردة ستنعشنا».

تركها وجلس جانباً ليعود فيقفز واقفاً ثم يلبس حذاء الركوب وهو يصيح بها: «هيا بنا، يا كايت، المتخلف عن القفز إلى الماء هو جبان».

شعرت كايت وكأن أطرافها مصنوعة من مطاط بدلاً من العظام، والحرارة التي تملكتها جعلتها أحرص على الارتماء في المياه الباردة من غاي... وفي اندفاعها للوصول إلى المياه، قطعت وهي تركض خلفه من دون مبالاة منحدراً فزلّت قدماها، وكادت تستقر على الحجارة المكومة على ضفاف المياه، لو لم يمدّ غاي ذراعيه ويتلقاها. عندما أمسك بها، قال لها ووجهه قرب وجهها: «أنت لا تحتملين أبداً أن تخسري تحدياً».

- دعني.

وقاومته بعنف فتركها ما جعل المياه تغمرها لحظة بشكل كامل. فهتفت وهي تقفز ملقية نفسها عليه: «أيها الوغد!».

وحالفها الحظ في أن تفقده توازنه. وإذا بهما يقعان على ظهريهما في الماء. عاد غاي إلى الوقوف أولاً فجذبها حتى وقفت وهو يطلق ضحكة خشنة مليئة بالرجولة.

- كان بإمكاني، في الماضي، أن أحبسك في إحدى زنزاناتي لهذا السبب أو أن أجلدك بالسوط...

فردّت ثائرة: «أنت لن تجرؤ».

وقفا لحظة وقد تملكهما الانفعال، وواجه أحدهما الآخر وسط النهر. بدا الجوّ بينهما مشحوناً بالكهرباء. كانت ملابس كايت مبللة تماماً وملتصقة بجسمها أما غاي، بشعره الكث الأسود وملامحه الخشنة، فقد كان عاري الصدر ما جعله يبدو أشبه بنبيل غجري وليس كارستقراطي فرنسي مثقف. وبصيحة متمردة وجهت كايت إليه رفسة ألقت به في الماء مرة أخرى. وعندما رأت منظر وجهه صرخت من جديد صرخة مليئة بالإثارة وابتدأت المطاردة

www.elromancia.com

بينهما.

تركها في البداية تبتعد... كما اعتاد دوماً، ثم عاد فلحق بها حتى الإنهاك إلى فسحة خالية... فسحة كايت... هذا المكان الصامت المظلل بأغصان الأشجار حيث اعتادت أن تختبىء في طفولتها. هناك كانت الطيور تخرس عن التغريد، كما تُمنع أشعة الشمس من التطفل إلا بشكل ومضات. أما الآن فقد أخذت ترفس بقدميها بتمرد غاضب حين حملها غاي بين ذراعيه عابراً بها المكان.

- والآن، ماذا أفعل بك؟.

سألها وهو يجلسها على سجادة من الطحالب. فأجابت بتمرد: «دعني أذهب».

قال وهو يركع على ركبتيه بجانبها: «لدي فكرة أحسن».

فقالت وهي تزيح شعرها عن عينيها: «وما هي؟».

ردّ ببساطة وهو يأخذها بين ذراعيه: «هذه...».

٧ - اللعب بالنار

ألقت بذراعيها حول رقبته محاولة أن تضع نهاية لعذابها مرة واحدة وإلى الأبد. لماذا لا تعانقه وتجعله يبادلها العناق؟ لكنه لم يفعل سوى أن أمسك بمعصميها وأرغمها على التراجع... التراجع والابتعاد عنه حتى ارتمت بجانبه على فراش الطحالب، تلهث إرهاقاً ولهفة. قال مؤنباً بعنف: «هل ظننت حقاً أنني سأدعك تستغلينني؟».

كان من القرب منها بحيث استطاعت أن ترى اللون الفيروزي في عينيه الرماديتين، من القرب بحيث بدا وكأنهما يتنشقان الهواء نفسه. فهتفت: «أستغلك! دعني أذهب، دعني أذهب».

جاهدت لكي تبقي نظرها بعيداً عنه، لكنه كان قد قبض على معصميها بيد واحدة.

- وكيف أدعك تذهبين؟ يجب ترويض القطط الوحشية.

جمدت كايت في مكانها بعد أن صدر عنها آهة قنوط. عكست عينا غاي مجرى أفكاره، وعندما أظلمت عيناه أدركت السبب. فقد أصبحت الفتاة الصغيرة التي يعرفها وراءه أخيراً وها هو الآن ينظر إليها على أنها امرأة ناضجة. بدا ذلك بالنسبة إليه اكتشافاً بعث في ملامحه رقة لم ترها كايت من قبل. تركها وأحاط وجهها بيديه. بدا السكون حولهما مطبقاً، وكأن الطبيعة كلها حبست أنفاسها. ثم، وكأنما ليدعم اكتشافه، أحنى رأسه وضمها برقة إلى صدره.

www.elromancia.com

قال غاي وهو يبعد رأسه: «هل هذا ما تريدينه، يا كايت؟».

أخذت نظراته تتجول على وجهها ببطء مثير. وشعرت كايت أنه أصبح تحت سيطرتها، فجلست وهي تتمنى لو سرى الثلج في عروقها. صوّبت عليه عينيها في تحدٍ مباشر، وشعرت بالنصر وهي ترى غاي يفشل في السيطرة على نظراته، فبدت زائفة بعيدة عن الإتزان. ولكن ما أن أخذت تهنيء نفسها لانتصارها حتى ألقى برأسه إلى الخلف مطلقاً قهقهة أرسلت في كيانها رعشة وهو يقول: «هذا ما تريدينه، أليس كذلك يا كايت الحلوة؟».

- ماذا تعني؟ لا أفهم ما الذي تريد أن تقوله.

ظهر الارتعاش في صوتها رغم محاولتها العودة إلى الشجار، فقال وهو يلف خصلة من شعرها على إصبعه: «أظنك تحبين أن تريني وأنا أفقد السيطرة على نفسي، فأنحني لإرادتك، وأخدمك وكأنك مهرة أصيلة».

- لا!.

بدا قوله هذا قاسياً مشيناً وجاء تأثيره سيئاً على حواسها. وقبل أن تعود إلى صوابها، أمسك ذقنها بيده، وقال بصوت خشن منخفض: «أظن أن هذا ما تريدينني أن أفعله، لكنه لن يحصل».

وهزّ رأسه بأسف ساخر مضيفاً: «لن يتم الأمر بهذا الشكل يا كايت».

وأبقاها مسمّرة تحت نظراته ثم عانقها... مجرد عناق قصير يبعث على الإحباط.

وعندما رفع رأسه سألها ساخراً: «هل تشعرين بتحسّن يا كايت؟».

- أظنك تعرف الجواب.

قالت ذلك بصوت أبح وهي تلتصق به عندما عانقها مرة أخرى، وكأنه لا يحتمل التوقف عن عناقها لحظة. وفجأة أجفلت متراجعة وهي تقول: «كفى!».

سألها برقة وهو يسمع الذعر في صوتها: «لكن لماذا؟».

راحت كايت تهز رأسها، وابتعدت عنه لتجلس القرفصاء على بعد أقدام منه وذراعاها حول ركبتيها. ثم دفنت وجهها في حجرها، فقال غاي وهو يحيط كتفيها بذراعه: «ما الخطأ في ذلك؟ أخبريني يا كايت... ما الأمر؟».

فقالت وهي تدفن وجهها أكثر: «لا شيء. يجب أن يتوقف هذا الجنون».

فعاد يقول برقة: «انظري إليّ يا كايت، لماذا تراجعت الآن؟».

وعندما أشاحت بوجهها قال بحدة: «لا، يا كايت. انظري إليّ، ولا تشيحي بوجهك. هناك ما يكدرك وأريدك أن تخبريني عنه».

قالت ووجهها لا يزال مدفوناً بين ركبتيها: «لا أريد أن أخسر صداقتك».

بقي غاي جامداً لحظات عدة، ثم أدارها برفق لتواجهه وهو يتمتم بحنان: «كايت.. كايت الشجاعة، دعيني أطمئنك إلى أنني لن أتخلى عنك أبداً».

فقالت: «بعد الحادث الذي وقع لي في المسرح، تخلّى الكثير من أصدقائي عني وأنا لا أريد حصول ذلك معك أيضاً».

أحنى رأسه وعاد يأخذها بين ذراعيه وهو يقول: «تعالي إليّ، استلقي فقط بجانبي هنا وانسي كل ما حدث. انبذي كل شيء من ذهنك ما عدا أنك عدت إليّ... عدت إلى فرنسا حيث لن أدع شيئاً يؤذيك مرة أخرى».

أخذت كايت تفكر في ذلك والدموع تنهمر على خديها من دون أن يراها، كما أنه لن يستطيع رؤية الأثر الذي تركته ثقته في قلبها لتوها.

* * *

- أين كنت؟.

سألتها ميغان هذا بعطف عندما عادت كايت إلى الكوخ قبل المغرب بقليل، وتابعت: «قلت إنك خارجة لتتمشي لا لتشتركي في سباق الماراتون. انظري إلى نفسك، تنورتك في حالة مزرية.. هل أنت بخير؟».

نظرت كايت إلى ملابسها بأسى ولم تعرف من أين تبدأ: «أنا بخير وكفى قلقاً يا ميغان، فأنا فتاة كبيرة الآن!».

تنهدت ميغان غير مقتنعة: «آه، أحقاً؟».

- التقيت غاي.

- الآن.. أنت تدهشينني.

- وقعت في النهر....

- وهو أنقذك؟.

- نعم.

- ولم تصابي بأي أذى؟.

- لقد تأذت كبريائي فقط.

- جيد، لأن لدي خبراً لك.

راحت ميغان تشغل نفسها بفراشي الرسم، فأدركت كايت أن الخبر ليس سارّاً: «هاتي الخبر».

- اتصل ثلاثة من الزبائن يسألون إن كان بإمكانهم القدوم قبل الموعد بقليل... وهكذا، اتصلت بالآخرين وطلبت منهم...

- ميغان، لا أراك فعلت ذلك...

- بما أننا سندعو نصف جيراننا إلى حفلة التدشين، فكرت في أنها ستكون مناسبة كبرى عليهم ألاّ يفوّتوها.

نظرت كايت إليها بسخط ممزوج بالمحبة: «هل فعلت ذلك حقاً؟».

فأجابت ميغان وهي تنظر إليها لترى إن كانت تساعها: «فعلت يا حلوتي، فهذه أفضل طريقة في رأيي. لا يمكنني أن أحتمل رؤيتك تجهدين نفسك في هذا العمل. بعد كل تلك السنوات عليك أن تعلمي أكثر من أي شخص آخر أن لا أحد يمكنه أن يخدع غاي. لما لا تعترفين له وتخبرينه بنيتك في أن تديري مضافة؟».

فقالت كايت بحزم: «كلا يا ميغان، يمكنني أن أؤكد لك...».

- أكدّي لي ما تشائين لكنه عنيد مثلك، ولديه الكثير من المسؤوليات الآن: إصلاح القصر، وإنعاش أعماله، والقلق على أمه.. برأيي، كلما أسرعت بإخراج الأمر إلى العلن، كلما كان ذلك أفضل.

- تماماً كما قلت.. لديه الكثير من المسؤوليات، وأين علي أن أواجهه في رأيك... أمام أول زبون؟.

- ونصف أهالي القرية.

قالت ميغان ذلك بمرح رافضة الشعور بالإحباط فقالت كايت وهي تحيط كتفي ميغان بذراعها وتحتضنها: «آسفة.. أنا أعلم أنك على صواب، لكنني لا أعرف اللحظة المناسبة وحسب... فهلا توقفتِ عن النظر إلي بهذا الشكل؟».

حاولت ألاّ تبتسم حين ارتفع حاجبا ميغان بسرعة.

- هل من أخبار عن الكهرباء؟.

- ولا كلمة.

فتمتمت كايت مفكرة: «سوف أحضر الخضار الطازجة التي طلبتها من القصر، وبهذا لن يكون ثمة مشكلة».

قال غاي إنه سيتغيب لعدة أيام، فما الداعي إلى القلق؟ إلى أن يعود، ستكون الأمور قد انتظمت كالساعة.

www.elromancia.com

- أنا مسرورة لقولك إن ضيوفنا سيحضرون باكراً يا ميغان. فأنا أشعر باللهفة إلى بدء العمل.

* * *

بعد أيام قليلة، فوجئت كايت بقدوم أول الضيوف. كانت ميغان في الحديقة تضع بعض حوامل لوحات الرسم تحت مظلة، إذ كانت تخطط لأن يختبر الضيوف مهاراتهم الفنية أثناء الحفلة. أما كايت فكانت مشغولة في المطبخ بإعداد الطعام، وقد كوّمت شعرها الطويل عند قمة رأسها وربطته بوشاح أخضر. كانت النوافذ والأبواب مفتوحة حتى تتمكن المرأتان من تبادل الحديث أثناء عملهما. كما كانت رائحة الطعام الشهية تملأ المكان.

كانت كايت مستغرقة في زخرفة قوالب الحلوى بحيث فاتها سماع الطرق على الباب في البداية. لكن تكرار الطرق جعلها تهرع إلى الباب وهي تصيح بميغان من النافذة أن تدخل إلى البيت بسرعة. وما لبثت أن هتفت بحيرة: «كونتيسة!».

كانت والدة غاي تقف عند العتبة بصحبة السيدة دبليس مديرة المنزل، فهتفت بدورها وهي تغطي فمها بيدها المكسوة بقفاز من الدانتيل: «آه، يبدو أن الوقت غير ملائم للزيارة».

فتراجعت كايت تفسح لهما الطريق: «أبداً».

قالت المرأة المسنة وهي تنظر إلى ما خلف كايت بفضول: «حسناً، إذا كنت تصرين... لم أستطع مقاومة الرغبة في الحضور لأرى سبب كل ما يجري وما يتحدثون به. وهذا لا يعني أنني أصغي إلى الأقاويل، لكن الجميع يبدو متحمساً للحفلة، وأنا لن أكون موجودة...».

- ولكن، لماذا لا؟.

سألتها كايت وهي تلقي نظرة على السيدة دبليس راجية أن تساندها.

وقبل أن تجد المرأة فرصة للكلام، دخلت ميغان فقالت: «نعم، لما لا؟».

هتفت الكونتيسة وهي تمد يديها وكأنها لا تصدق ما ترى: «ميغان؟ ما الذي تفعلينه هنا؟».

- أنا هنا لأحقن بعض الفوضى في بيت كايت المنظم.

قالت هذا وهي تمسك بيدي الكونتيسة تقبلهما وتقول بصراحتها المعهودة: «تبدين شاحبة».

فتنهدت الكونتيسة: «يقولون إن علي أن أحضر هذه الحفلة، ما رأيك يا ميغان؟».

- وأي ضرر في ذلك؟.

نقّلت الكونتيسة نظراتها بينهن وكأنها تلتمس الطمأنينة منهن جميعاً: «لا... لقد كبرت على مثل هذه الأمور».

فقالت كايت وهي تخلع مئزرها: «كلام فارغ. وفي الحقيقة، يلزمني بعض المساعدة».

تجاهلت نظرة السيدة دبليس الذاهلة، وتابعت كلامها وهي ترافق الكونتيسة إلى أكثر مقاعد الغرفة راحة: «سيأتي عدد من الضيوف أكثر مما تصورنا في البداية...».

فقاطعتها ميغان بحماسة: «سيكون الازدحام بالغاً ونحن بحاجة ماسة إلى العون...».

قالت السيدة دبليس وهي تنظر بسرعة إلى الكونتيسة: «يمكننا القيام بذلك نحن الإثنتان، فلطالما كنت أقيم حفلتين في العام بحضرهما الجميع مع العزيزة أليس...».

وسكتت قليلاً ثم تمالكت نفسها وقالت بعد أن حقنت بعض النشاط في مشاعرها الحزينة: «ولكن، يا كايت.. يجب أن تخبرينا ما علينا أن

www.elromancia.com

نفعله».

* * *

عندما أصبحت كايت وميغان وحدهما على العشاء، قالت هذه الأخيرة: «كانت تلك حركة جيدة منك، فقد أنجزت أكثر مما استطاعه الأطباء باقتراحك ذاك على الكونتيسة».

نبذت كايت ذلك المديح بإشارة صغيرة وهي تعيد ملء صحن ميغان بقطعة أخرى من فطيرة الكرز الساخنة ثم تقدم إليها وعاء السكر الناعم: «شعرت بالابتهاج وأنا أرى اللمعان يعود إلى عينيها. أتمنى فقط لو أنها تدرك ما ينتظرها. أتظنيننا جاهزتين، يا ميغان؟».

نظرت ميغان حولها في أنحاء المطبخ، ثم قالت باسمة: «أعرف أننا كذلك».

وزّع الكايك والفطائر على كل الطاولات وتم إرسال ما تبقى من الأطعمة والحلويات لحفظها في الثلاجات الضخمة.

قالت ميغان بعطف: «لا عجب في أنك متعبة، فقد حضّرت ما يكفي لإطعام نصف سكان فرنسا وليس فقط نصف سكان القرية».

- لأنني لا أريد أن أخيب أملهم.

فشخرت ميغان ساخرة: «لا سبيل إلى ذلك».

- وأريد أن أترك تأثيراً طيباً عند نزلائنا.

قالت كايت هذا وهي تتفحص ذهنياً غرف النوم ثم أضافت: «الأزهار الطبيعية!».

- ماذا تعنين؟.

ردّت كايت بقلق: «يجب وضع الأزهار الطبيعية في غرف النوم وحول الكوخ، لقد نسيت ذلك تماماً... كما أنني أريد بعضها للمائدة في الخارج».

لقد خططت لوضع الكثير من الطعام على مائدة مستطيلة في الحديقة، وقدمت لها الكونتيسة طاولات صغيرة عدة يمكن وضعها إلى جانب بعضها البعض لتفي بالغرض... ولكن الأزهار...

فابتدأت ميغان تقول: «قالت ماري تيريز...».

لوت كايت شفتيها ساخرة: «ماري تيريز؟ أرى أن علاقتكما أصبحت طيبة للغاية».

- طلبت مني الكونتيسة أن أناديها باسمها الأول كما اعتادت عمتك أن تفعل.

واحمرّ وجهها السمين وهي تقول هذا، فقالت كايت تشجعها وعيناها الخضراوان تلمعان: «تابعي إذن، ماذا قالت ماري تيريز؟».

- قالت إن بإمكاننا الحصول على الأزهار من حديقتها ومستنبت أزهارها.

- هذا أمر رائع! سيصل أول نزلائنا قبل الظهر بالضبط، أما الباقون فسيصلون بعد ذلك بفترة قصيرة.

- هذا صحيح.

قالت ميغان ذلك وهي تنظر إلى كايت مدركة أنهما قيّدتا نفسيهما في برنامج ضيق تماماً. لم يغب عن بالهما رغم المشاكل كلها أن غاي قد يدخل عليهم فجأة من دون إنذار. تملكت كايت موجة من الحماسة بدلاً من الخوف، فقالت وهي تلقي حولها نظرة أخيرة: «من الأفضل أن نذهب إلى الفراش، لأن غداً يوم حافل».

فقالت ميغان وهي تنفخ الشموع لتطفئها: «يمكنك أن تقولي ذلك مرة أخرى. كل ما أرجوه هو أن تكوني على صواب في أن يعتبر نزلاؤنا عدم وجود الكهرباء فكرة مميزة».

www.elromancia.com

- مادام لديهم الكثير من الماء الساخن، فسيكونون بأحسن حال.

- أرجو أن يكون كلامك صحيحاً، كما أرجو أن يكونوا حذرين لأن آخر ما نريده هو حريق آخر.

قالت ميغان هذا وهي تناول كايت شمعة تنير لها طريقها إلى الطابق العلوي. فقالت كايت: «وعدني غاي أن يحل مسألة الكهرباء إذا لم أستطع أن أؤثر في المسؤولين قبل أن يعود من رحلته».

- هل وعدك بذلك أثناء رحلة صيد السمك تلك؟ تلك الرحلة التي اختفيت فيها ثم عدت إلى البيت وقد بدوت كعروس بحر عاشقة؟ نعم، أتذكر. هل ستخبرينه عن سبب حاجتك الماسة إلى الكهرباء؟.

- سأفكر في شيء أقوله.

قالت هذا شاردة الذهن، وقد أدركت أن ميغان سيبت لها لتوّها ليلة مؤرقة.

* * *

وصل أول الضيوف وهم ثلاث نساء مسنات قلقات المظهر من منطقة منعزلة في شمال إنكلترا. قالت ميغان وهي تحدّق إليهم من النافذة: «إنها مجموعة تثير الاهتمام ولا أظنهم سريعي الانفعال. إن هؤلاء برأيي يضفون لوناً ما بكل تأكيد!».

أخذت الاثنتان تحدّقان إلى القفطان المقصب الذي ترتديه إحدى النساء وإلى البنطلون الذي بدا لامعاً محكماً على جسدها. قالت كايت: «كيف ستفسرين ذلك؟ وكيف أوضح أمرهم للكونتيسة؟».

- قولي إنهم ضيوف... وهذا صحيح.

ثم استدارت لتستقبل السيدات الثلاث اللواتي كن يهبطن السلم. ورغم تنبيههن إلى عدم وجود كهرباء، أعلنّ أنهن مفتونات بسحر الكوخ القروي

الطراز. قالت ميغان وهي تقف وسط الغرفة: «انتظري لحظة، من هو ذلك القادم من بعيد؟».

وفقدت كايت توازنها وهي تتبع نظرات ميغان: «آه لا! لا أصدق هذا».

توقف قلبها عن الخفقان لرؤية غاي قادماً، لكنها لاحظت أن ميغان أشارت إلى زائراتهن الثلاث بأن يخرجن من الباب الخلفي. تصاعد الطرق المميز على الباب ليدخل بعدها غاي قاصداً المطبخ: «كايت...».

فهتفت بحيوية أكثر من اللزوم: «غاي، يا لها من مفاجأة!».

- أحقاً؟ جئت في اليوم المناسب، أليس كذلك؟.

وعندما نظرت إليه بحيرة، أضاف يذكرها: «حفلة تدشين بيتك، أليس كذلك؟».

إذن فقد سوّي الأمر. أما السبب في تسارع دقات قلبها فلا علاقة له بوجود أول زبائنها قرب النافذة، كما أدركت وهي تعدّل جلستها.

- آه! نعم.. نعم طبعاً...

قالت هذا وهي تشعر بأن حلقها جفّ لمجرد رؤيته في بزّته الكتانية وقميصه الأبيض المنشى.

قالت وهي تصفق متظاهرة بأنها تذكرت: «آسفة، طبعاً كنت أتوقع حضورك. كل ما في الأمر أنني لست جاهزة بعد».

فقال غافلاً عن أمواج الإثارة التي يشحن بها جوّ المطبخ: «هذا حسن، أنا مسرور لوصولي قبل أي شخص آخر إذ لدي مفاجأة لك. ألن تسألي عما تكون؟».

حاولت أن تجيب لكنها لم تجد الكلمات. فقال بابتسامة تذيب الحجر، جعلتها تقف جامدة لتخفي مشاعرها: «لا تبدي مثل هذا القلق، إنه الرجل

www.elromancia.com

الذي سيقوم بتوصيل الكهرباء إلى منزلك».

قال هذا مظهراً رضاه عن نفسه، من دون أن ينتبه إلى الفوضى التي ألحقها بحواسها.

- أحضرته معي لئلا يحصل أيّ تأخير. تركته عند المحطة الكهربائية الصغيرة على التلة.

- آه، هذا رائع..

وتساءلت إن كان يسمع خفقات قلبها. وفي اللحظة التالية، سار غاي نحو النافذة وكأنّ يدين غير مرئيتين تجرانه، ونظر إلى خارجها قائلاً: «من هم هؤلاء الناس؟ لا أظنني أعرفهم».

- أي أناس؟.

- هل هم ممثلون جاؤوا لتسلية ضيوف الحفلة؟.

أدركت كايت أنها تفرك يديها بحذر، وأن غاي يمكنه قراءة لغة الجسم بمهارة، فخبأتهما خلف ظهرها بسرعة.

- أم لعلهم...

شعرت وكأنها معلقة من كاحليها فوق الجمر وهي تنتظر أن ينهي حديثه.

- ... زبائن يدفعون أجراً يا كايت؟.

لم تكن للحدة في صوته التأثير القوي نفسه كما كان للصمت الطويل الذي تبع اتهامه هذا لها. سألها بهدوء: «حسناً، ألا تظنين أنك مدينة لي بتفسير؟».

حمل صوته نبرة إنذار بخطر وشيك، ما هزّ تحكّمها في نفسها. فقالت وهي تغص بريقها: «أنت قلت إنك لا تمانع إن فتحت مكتباً».

- نعم، ولكن هذا مختلف تماماً.

- ما هو المختلف؟.

- لقد أنشأت «مضافة».

- حسناً، وماذا في ذلك؟.

قالت ذلك وهي تنتصب في وقفتها. لن تستسلم للإرهاب... لن تستسلم. امتدت ذراعاه كدعامتين من فولاذ سجنتاها بينهما فيما أسندت ظهرها إلى منضدة العمل. قال مزمجراً ووجهه يكاد يلتصق بوجهها: «وثائق «البيت الصغير» لا تسمح بهذا».

قوة تحديقه إليها يمكنها أن تجعل أي شخص آخر ينهار طالباً الرحمة، لكن كايت رأت نظراته هذه من قبل، فرفعت رأسها تواجه نظراته الفولاذية بعينين لا تطرفان: «حسناً، لم أكن أعرف شيئاً عن مستنداتك التعيسة تلك حين ابتدأت أخطط لكل هذا. والآن فات الأوان».

فقال بنبرة عنيفة: «يبدو أنك لم تقرئي المستندات التي سلمتها لك، أليس كذلك؟ من المفترض أن تسألي وتستفهمي قبل البدء بمغامرتك هذه. ولكن هل تعلمين حقاً ما يغيظني؟».

وعندما هزّت رأسها نفياً قال: «أنك لم تكوني صادقة معي... لم تثقي بي بما يكفي لتخبريني عن خطتك تلك».

- ربما... لو أنك لم تسكت عن المستندات التعيسة هذه...

- لا علاقة للأمر بالمستندات يا كايت، وأنت تعلمين ذلك. المسألة مسألة الثقة.

أبقاها في الشرك أمامه ما جعلها تبعد وجهها عن حرارة نظراته وتابع يقول: «الثقة بين شخصين تتطلب أن يكونا صادقين مع بعضهما البعض. لا تهزي رأسك أمامي بهذا الشكل وكأن ليس لديك فكرة عما أتحدث عنه».

فقالت بتعاسة: «أنا لا أفعل ذلك».

www.elromancia.com

وتساءلت متى يستحيل غضبه إلى ازدراء، بينما عاد يقول: «حسناً، سأوضح لك... أخبرتني أنك تحرصين على صداقتنا، لكن عندما وصل الأمر إلى حياتك، استبعدتني. أي نوع من النساء تفعل ذلك، يا كايت؟».

بدا اتهامه مذهلاً بشراسته، وشعرت بصداع مؤلم وبأن النار التي كانت تسري في عروقها استحالت ثلجاً.

- لا أفهم...

فقال بمرارة: «كلا، يا كايت.. بل أنا الذي لا أفهم. هل ظننتني حقاً ذلك الغول الرهيب؟».

سألته بتحدٍ: «ما هو شعورك نحو خطتي هذه إذن؟».

فردّ بصراحة: «أنا غاضب جداً الآن. لن أدع هذا يحدث».

قالت متمنية لو أنها واثقة حقاً مما تقول: «لكنه يحدث الآن».

ابتعد عنها بفروغ صبر، وسار خطوتين ليقف بعدئذٍ وسط الغرفة وظهره إليها، ثم أخذ يحك رقبته: «هذه ليست لعبة يا كايت، وأنت لم تعودي بنتاً صغيرة. لا يمكنك أن تأتي إلى فيلينوف بعد كل تلك السنوات لتقلبي كل شيء رأساً على عقب».

أخافها الغضب البالغ في صوته، فسألته بنعومة: «وهل هذا ما أفعله؟».

تمتم من دون أن يلتفت: «أنت تعرفين أنك تفعلين ذلك».

تلهفت للاقتراب منه لتبلغه كم هي آسفة، وتسأله إن كان بالإمكان أن يبدآ من جديد. لكن التحفظ العميق المتجذر فيها منعها، كما منعها شعورها بأنها أدنى مستوى اجتماعياً من الكونت دي فيلينوف. استدار غاي ببطء بالغ وأخذ ينظر إليها صامتاً. بدا وجهه كقناع لا ينمّ عن أي شيء، ثم قال بحزم: «الوقت غير مناسب للمناقشة الآن. لديك زبائن ينتظرون خارجاً، وسيصل

غيرهم في أي وقت».

- هذا صحيح.

- تذكري فقط يا كايت، أن هذه المزارع والناس الذين يعتمدون عليها ليسوا هنا لتأمين رفاهيتي. إنني أخدم مزرعة فيلينوف وكل من له صلة بها. وعليّ أن أتأكد من أن البيئة التي نعيش فيها جميعاً...

فقاطعته: «نظيفة؟».

بدا أنّ هذه الملاحظة جرحته: «لا أستطيع أن أسمح لك بإدارة نزل هنا».

ردت عليه بحدة: «وأنا لا أستطيع أن أسمح لك بأن تخبرني ماذا أفعل».

- لو قرأت تلك المستندات التعيسة، لفهمت...

فهزت رأسها محبطة: «أفهم ماذا؟».

- لا وقت لذلك الآن.. مستقبل مزرعة فيلينوف قد لا يعني لك شيئاً يا كايت، لكنه حياتي كلها.

فقالت بعناد: «وهي حياة مملة للغاية لا ميزة فيها».

- بل فيها من الميزات ما يكفي من دون حاجة إلى مزيد منها. تلك المستندات ما زالت سارية المفعول، فإذا لم تستطيعي أو لم ترغبي في العيش تبعاً لها...

- ماذا؟ هل أخرج من هنا؟.

سألته بغضب وهي ترى فكه يتوتر، كابحاً الكلمات التي تتزاحم في رأسه. لم يتعود غاي أي يعصى أحدهم أوامره، وها هي ترى إرادته الحديدية تلين.

ضاقت عيناه وأصبح فمه خطاً حازماً، كما توتر فكه وهو يسند يديه إلى النافذة لكي يرى ميغان وهي تجول بالآخرين في الحديقة. تمتم يحدث نفسه:

«لا، لن يكون هذا سهلاً عليك».

ما الذي رآه حقاً؟ تساءلت كايت وهي تتبع نظراته. هل رأى غاي أنّ «البيت الصغير» نفث سحره في هؤلاء الذين يسيرون في الخارج كما ترى هي؟ هل سمع ضحكاتهم ورأى الانتعاش على وجوههم ولمعان التوقع في أعينهم؟ ما الذي سيشعر به عندما يعلم أن أمه... ابتعد أخيراً عن المنضدة وأخذ يحدق إليها. فقالت له بتوتر: «لا يمكنني أن أوقف ذلك الآن، أنا أعلم أنك غاضب مني، ولكن...».

قاطعها: «خيبة الأمل التي أشعر بها تفوق غضبي، لأنك لم تري من المناسب أن تشركيني في خططك».

ما قاله صحيح، فهي لا تستطيع التراجع الآن، بعد أن وضعت في «البيت الصغير» الكثير من الآمال. يكفي فقط أن تفكر في ما تخلّت عنه ميغان... قالت: «إذا أردت أن ترغمني على شيء، فسوف أحاربك حتى النهاية».

- ليس لدي أي شك في ذلك.

مضت لحظات من الانتظار حيث لم يعد هناك وجود لأي شيء عدا المسرحية المثيرة التي تدور بينهما ما أرهق كايت. وإذا بغاي يقول بعد أن لاحظ مزاجها: «من الأفضل أن تستعدي. فكل آتٍ قريب».

- إذن فأنت لن...

وتلاشى صوتها وهي تنظر إليه.

- لن أفسد حفلتك.

مرّ ظل على وجهه بسرعة، وكأنه يخوض معركة داخلية.. وكأن جزءاً منه يريدها أن تنجح.

ثم قال وهو ينظر إلى أطباق الطعام الشهية الموزعة في كل مكان:

«ستتحدث عن «البيت الصغير» في وقت آخر... قريباً».

أضاف الكلمة الأخيرة وكأنه يؤكد لها أن المشكلة لم تمرّ بسلام. قالت ببساطة: «شكراً، ألن تبقى؟».

- أبقى؟.

- نعم، لتحضر الحفلة، ولما لا؟.

- إذا بقيت فسيكون هذا إقراراً أمام الجميع بأنني موافق على فتح نزل في المزرعة.

- وإذا لم تفعل، فسيتساءل القرويون عما منعك من مشاركتهم هذه المناسبة السعيدة.

- آه، يا كايت... ليس لديك فكرة، أليس كذلك؟.

وزم شفتيه بحزم وهو ينظر إليها فرأت ذلك المزيج المألوف من التساهل والإحباط في عينيه: «لن أنفعك بشيء هنا على أي حال».

قال ذلك وكأنه يحاول أن يقنع نفسه، فقالت: «لا أوافقك الرأي».

- بل توافقين طبعاً، إنما هذه عادتك.

بدت على شفتيها ابتسامة صغيرة وهي ترى شبه ابتسامة ترتسم على زاويتي فمه. وقال بصوت رقيق جعلها على استعداد للسير على الجمر من أجله لو طلب منها ذلك: «اتفقنا... اذهبي واستعدي لضيوفك».

- هل سأجدك هنا عندما أعود؟.

تحرك فكه لكنه لم يقل شيئاً، إلا أن حاجبيه ارتفعا لحظة وكأنما سرّه أن تسأله. وعندما ابتعدت عنه، شعرت بنظراته الحادة تتبعها في كل حركة، وتخترق ظهرها. لم يكن لديها فكرة عما إذا كانت ستجده هناك عندما تنتهي من ارتداء ملابسها، لكن لم يعد لديها أدنى شك في أن هذا العمل بينهما سيستمر... ويستمر....

www.elromancia.com

٨ ـ ليلة في قصر الأحلام

لم يعد لديها وقت للتفكير في عدم موافقة غاي على عملها، فما إن عادت كايت إلى الطابق السفلي حتى غرقت في مشاغلها. وبينما كانت تستعد للحفلة، تدفق سكان القرية إلى الكوخ. شعرت بخيبة أمل وهي ترى المطبخ مهجوراً، من دون أثر لغاي. لكن سماعها دمدمة الأحاديث في الخارج، والضحكات وصيحات التهليل والتعارف، جعلها تدرك أن عليها أن تنساه الآن. وكانت قد خلعت ثوب العمل وارتدت ثوباً بسيطاً من الكتان بلون زهرة اللافندر، ومشطت شعرها بسرعة، وتركته منسدلاً على كتفيها كشلال ذهبي متألق.

كانت شمس العصر الحادة قد تحولت إلى وهج برتقالي اللون عندما أسرعت تخرج فطيرة التفاح من الفرن. وبعد أن رشت على الخبز المحلّى طبقة من السكر، وضعته في طبق بيضاوي واسع ثم وضعت الطبق على صينية لترسله إلى الخارج.

شعرت بالسعادة وهي تدرك أن الحفلة ناجحة. لكن أكثر ما سرّها هو أن ترى تلك المرأة الصغيرة الحجم، البالغة الأناقة، والدة غاي وهي تتجول في الحديقة تقدّم الحلوى للقرويين، مستمتعة بسرورهم الواضح لرؤيتها مرة أخرى. راح الرجال يرفعون قبعاتهم لها وأعين النساء تطفح سروراً لرؤية هذا البرهان على شفائها.

- تهانيّ!.

- غاي! ظننتك ذهبت.

وعندما رفعت بصرها إليه أجفلت ثم تملكها الذهول وهي ترى مظهره. ذراعاه القويتان اللتان لوحتهما الشمس وظللهما شعر أسود لم تكونا مزينتين بسوى ساعة ذهبية لكن ما أذهلها هو رؤية منشفة على إحدى ذراعيه، فيما ربط منشفة أخرى حول وسطه لتغطي بنطلونه، فقالت: «ما الذي تفعله بهاتين المنشفتين؟».

بعد كل ما حدث، أدهشتها تلك النظرة الضيقة المتساهلة التي رمقها بها ثم قال بجفاء: «على شخص ما أن يهتم بموقد الشواء. هل ظننتني سأتركك لميغان...؟».

- لمَ لا؟ إنها قادرة تماماً.

وانتفض قلبها حين رأت الهزل على شفتيه: «أوافقك الرأي عندما لا يكون ذهنها مشغولاً، أما الآن...».

وهز كتفيه، فتبعت كايت نظراته لترى سائقه وهو مشغول بإعطاء ميغان بعض الكايك من صحنه. فتمتم غاي وهو يأخذ الصينية من بين يدي كايت: «سمعت من قبل عن كايك الملائكة، ولكن ليس عن كيك كيوبيد».

عندما رأى القرويون سيدهم الكونت قادماً إليهم، حاملاً المزيد من الأطعمة اللذيذة، أفسحوا له المجال بسرعة ليصل إلى المائدة. وأسرعت الكونتيسة لتهتم بالخدمة، فيما وجد غاي أنّ السيد ديبونت حلّ محله عند موقد الشواء، فألقى بمئزره المؤقت جانباً ثم ملأ كوبين من العصير وعاد بهما إلى كايت قائلاً: «تبدين وكأنك بحاجة إلى ما ينعشك».

شعرت بالامتنان لأنه على الأقل صادق. فهو لم يتصرف وكأن خصاماً وقع بينهما وحسب، لا بل بقي ليساعدها ويشارك في الحفلة... تمتمت وهي تركز نظراتها على الشراب في كأسها: «شكراً، إنه لذيذ».

- دعيني آخذ الكوب منك. هل نرقص؟.

قال الجملة الأخيرة وهو يأخذ الكوب من يدها فيما غطى وجهه قناع من الهزل.

- نرقص!.

- نعم، والرقص هو أن أمسك بك ثم نتحرك معاً على الأنغام بانسجام.

أدركت كايت أنها لن تربح أبداً. وعدم المبالاة هو الطريقة الوحيدة التي تسمح لها بأن تخفي السعادة التي تشعر بها لإدراكها أنه صفح عنها.

اعتبر غاي صمتها قبولاً فتأبط ذراعها وقادها إلى الفناء الداخلي المزدحم بالرجال والنساء والأولاد الذين يتدافعون ليتمكنوا من الرقص على أنغام الموسيقى المرحة الصاخبة. توقف بعضهم عن الرقص حالما رأوا غاي يقترب، إلى أن توقفت أخيراً أصابع الموسيقيين عن العزف. شعرت كايت بالخجل فجأة فرسمت ابتسامة اعتذار على وجهها وهي تنظر حولها.. ربما هذه هي اللحظة المناسبة للعودة إلى المطبخ. إلا أن غاي أحسّ بترددها فشدّ يده على ذراعها وهو يخاطب الموسيقيين: «أرجوكم أن تتابعوا لأن الآنسة فوستر تشعر بالخجل».

فقاطعته غاضبة: «لا، لست كذلك».

هز كتفيه بأسف، وارتخت زاويتا فمه بتسلية جافة عندما عادت الموسيقى إلى العزف، ولكن بنغمات أكثر بطأ. سدّدت كايت ركلة إلى ساقه فقال وهو يشدّها إليه أكثر: «أخطأت الهدف».

أحست كايت بالغضب البالغ وهي تشعر بيديّ غاي تتحكمان في حركاتها بحزم جعلها تدرك أنها لن تبتعد عن هذا المكان إلا حين يرغب في ذلك... حتى ولو كانت لا ترغب في ذلك... أبداً. لطالما كان غاي يبحث عن فرصة لإغاظتها، إذ كان يسميها «الحسناء العنيدة»، ويبدو أن لا شيء تغيّر الآن. ولم يكن لديها شك في أنه سوف يستخدم هذه السيطرة نفسها عند البحث في تفاصيل أوراق الكوخ التعيسة.

لم تأت كايت بحركة سواء مثبّطة أو مشجعة، لكنها سمحت لنفسها بأن تشبك أصابعها بأصابعه، وكان هذا كافياً. بدا وكأنها تحترق فيما تجاوب هو معها بإحساس مماثل. كانت رسالته واضحة، إذا اختارت أن تسمعها. وألقت نظرة من حولها.. بما أن القوم رأوا أن سيدهم سعيد بالاختلاط بهم على حلبة الرقص، عادوا إلى الرقص من جديد. وعندما أراحت وجنتها على صدره لم يلاحظها أحد. تساءلت كيف سيكون الأمر لو أنهما يرقصان وحيدين... وغاي يركز عقله وقوته ورقته البالغة على بعث السرور في نفسها. كانت تشعر بجسده الصلب من خلال ثوبها الصيفي الرقيق.

شعرت بذراعيه تشتدان حولها وكأنه يشعر بما يجري في خيالها... لطالما خطر لها أن غاي سيكون حبيباً رائعاً حساساً، إنه الشخص الوحيد الذي يشعرها بالإثارة والأمان معاً. قد يكون بالغ الظرف والحنكة خارجياً، لكن تينك العينين المعبّرتين بمكر تفضحانه.

- سامحيني يا كايت.. كايت.

كان مرغماً على سحبها من أحلام اليقظة فنظرت إليه بشرود من خلال عينين غائمتين: «أسامحك؟ على ماذا؟».

- لأنني لم أكن أوليك ما يكفي من اهتمام.

هل كان يهملها حقاً؟ إذا كان هذا إهمالاً لها، فهي متلهفة إلى انتباهه الكامل.

فقالت: «أظن أن إعادة الأعمال إلى نصابها استغرق وقتك كله».

- هذا صحيح، ويجب أن يبقى العمل هو الاهتمام الأول لكي يزدهر. لكنني أظن أن الوقت حان لكي أعود لالتقاط كل ما فاتني.

- ماذا تعني بذلك؟.

- أعني أن الوقت حان كي ألقي نظرة على ما يحدث بالقرب من بيتي.

قال هذا بغموض وهو يعود إلى الرقص على أنغام الموسيقى الهادئة.

عندما اصطبغت السماء باللونين البرتقالي والقرمزي تفرق الراقصون، ومضت لحظات قبل أن تدرك كايت أن الرقص توقف.

- لا تتوقفا، أنتما الاثنان، بسببي...

عندما تدخل صوت والدة غاي بين كايت وحلمها، لم يبد غاي أي إشارة لتركها. قالت الكونتيسة وهي تلمس ذراعها: «يا لها من حفلة جميلة يا عزيزتي! كلنا شاكرون لك...».

- لا... إنها ليست بشيء...

- بل هي أكثر من هذا بكثير. ليس لديك فكرة كم جمعت الناس معاً وجعلتهم سعداء بعد أن ألقوا بكل ما يقلقهم خلف ظهورهم عصر هذا اليوم. لا أتذكر أن شيئاً كهذا حدث منذ....

وسكتت فجأة، فمد غاي يده وأمسكت بها أمه بقوة وهي تتمالك نفسها بسرعة: «أنظر إلى نفسك أيها الرجل المحظوظ».

فقال وهو ينظر إليهما باسماً: «الذي يتأبط ذراعي امرأتين رائعتي الجمال».

وشدّ المرأتين إليه طابعاً قبلة على قمة رأس كل منهما. كان عليه أن يكون عادلاً بينهما... لأجل المظاهر. ولاحظت كايت تبادله الابتسام مع أمه.

- أنا مسرورة جداً لاستمتاعك بالحفلة، ومجيئك لرؤيتنا. لا أريدك أن تشعري بأنك غريبة.

- في الواقع، هذا هو السبب الذي جعلني أسعى إلى التحدث إليك.

قالت الكونتيسة هذا وهي ترمق كايت بنظرة تقييم من تحت أهدابها الكثيفة.

تقدم غاي ليمسك بذراعها قائلاً: «هل نجلس يا أمي؟».

- على عكس ما تعتقد، يا غاي، فأنا قادرة تماماً على الرقص طوال الليل لو شئت.

- طبعاً، يا أمي.

قال لها ذلك بانحناءة قصيرة، والتفتت الكونتيسة إلى كايت بعينين مشرقتين: «تقول ميغان إن من الأفضل أن أبيت الليلة في الكوخ. لكنني وقبل أن أوافق، أردت أن أتحدث إليك. فميغان لديها خطة».

أشرق وجه كايت اهتماماً بينما سأل غاي: «أي خطة؟».

- أن أرسم النهر عند الفجر... وأتمكن من عكس تباشير الفجر وهي تتسلل من بين الأشجار. هل لديك مانع غاي؟.

- ليس لدي مانع طبعاً يا أمي... وأنت يا كايت؟.

تسارعت أفكار كايت، وفكرت في وجود غرفة جميلة جداً فارغة في الكوخ، وهي تشرف على الحديقة فقالت: «أنا طبعاً لا أمانع. في الواقع ربما أنضم إليك في رحلة الرسم...».

للحظة، بدت خيبة الأمل على الكونتيسة وتنهدت: «آه...».

فسألتها كايت بحنان: «هل هناك مشكلة؟».

كان انتباه كايت مركزاً على مساعدة الكونتيسة في العودة إلى العالم الخارجي.

- نباتاتي...

فقال غاي بطريقة الرجال العملية: «يمكن للعمال أن يهتموا بنباتاتك».

فقالت الأم بحزن: «هذا مستحيل، فأنا لا أئتمن أحداً على نباتاتي... ولكن كايت يمكنها الاهتمام بها، هل ستقومين بذلك من أجلي ياعزيزتي؟».

- طبعاً، ولكن...

فقالت لها الكونتيسة وهي ترمق ابنها منذرة: «فليكن هذا آخر عمل

تقومين به في المساء وأول شيء تفعلينه عند الفجر. ستجدين المعدات اللازمة بجانب براميل الماء. وسيريك غاي طريقة العمل».

وربتت على ذراع كايت شاكرة ثم عادت لتنضم إلى مجموعة ميغان من الفنانين. ابتهجت كايت وهي ترى هذه المجموعة تزداد عدداً مع التحاق بعض القرويين بها بالإضافة إلى نزلاء «البيت الصغير».

وإذ أدركت كايت أن غاي بات ملزماً بأن يأخذها إلى القصر ويعيدها منه، التفتت لتقدم إليه اعتذارها، فقال: «أنا شاكر لك جداً.. ما أراه في أمي من تحسن، وأنا.. بصراحة.. يمكنك البقاء هناك، ولا أظن أن علينا أن نضع عراقيل لا ضرورة لها في شفائها، أليس كذلك؟».

قال لها ذلك وكأنه يدعوها إلى تناول الشاي في فناء البيت فردّت: «طبعاً».

ثم توقف قلبها عن الخفقان، إذ بدت دعوة غاي مغرية، ومليئة بالاحتمالات، وقالت متلهفة إلى أن يلحّ عليها: «ولكن، هل بقائي ضروري؟».

- لِمَ لا؟ غرف النوم لا تعوزنا، وقد سبق لك الإقامة في القصر من قبل.
- ولكن تفقد النباتات لا يحتاج لأكثر من دقائق...
- أظن أن لدينا الكثير من الأمور لنتحدث عنها.

يكفي أحلاماً.. عليها أن تدرك أن عقد الإيجار سيطل برأسه القبيح عاجلاً أم آجلاً.

- قد يباغتني النعاس فلا يعود بإمكاني قيادة السيارة.
- لكن سائقك...
- سيكون تحت تصرف مديرة المنزل.

فكرت في الأمر لحظة: «ما الذي تريد أن تتحدث عنه؟».

- هل عليّ أن أضع جدولاً بذلك؟.

اختياره للكلمات أثبت تخمينها بأن الحديث سيكون عن العمل بشكل رئيسي. قال: «لقد قمت بكل ما يمكنك القيام به هنا الليلة».

نظرت كايت نحو الكوخ فرأت مجموعة تزيد عن عشرة أشخاص يحدقون إلى ميغان، يلتقطون كل كلمة تقولها. كانت بحاجة إلى وقت للتفكير... لترى كيف ستنقذ الوضع. فردّت عليه قائلة: «ولكن ما زال هناك الترتيب والتنسيق».

- ألا تظنين أن بإمكان السيدة دبليس أن تهتم بذلك؟.

ولاحظت أن عدداً من موظفي القصر أخذوا ينظمون المكان تحت إشراف مديرة المنزل، بينما تناول غاي سترته: «فلنذهب».

- سأكون بحاجة إلى بعض الأشياء...
- ثمة غرفة كاملة مليئة بالملابس في القصر، أم أنك نسيت؟.

* * *

ركن غاي سيارته المارتن الرصاصية خلف القصر مباشرة، وأخذ كايت معه إلى تلك الدرجات التي سبق وهبطتها من قبل، متوقفاً فقط لكي يشعل الأضواء. قادها إلى المستنبت قبل أن يفتح الباب الذي اختفى منه أثناء زيارتها الأولى، ثم وقف يدعوها إلى الدخول: «مرحباً بك في جناح أمي. لا أحد غيري يسمح له بالدخول إلى هنا، والآن، أنت».

قال هذا وهو يتفحص وجهها ليرى تأثير كلامه. وقفت كايت صامتة تنظر حولها، ثم استدارت تغلق الباب خلفها، مدركة أنها باتت في عزلة عن العالم الخارجي، شاعرة بحزن مبهم يدور حولها.

قال غاي برقة وهو يستند بظهره إلى خزانة من خشب الماهوغاني تحتوي على أصص رائعة الجمال للنبات: «ربما فهمت الآن سبب شكري العميق

- كنت على حق.

- بالنسبة إلى ماذا؟.

- بالنسبة إلي. . . العمة أليس. . . فهمت الآن لماذا كنت قلقاً من رد فعلي عندما احترق الكوخ. . . إنها ليست الطريقة المثلى. . .

وأجالت نظرها في أنحاء الغرفة الحافلة بذكريات العمر. وعندما نظر إليها لاحظت الحنان يزداد في نظراته فقالت: «شكراً لك».

فقال وهو يترك يديها: «بل الشكر لك أنتِ».

- لماذا؟.

- لأنك أريت أمي أن بإمكان الحياة أن تستمر. أنا أعلم أن الحياة لن تعود أبداً كما كانت بالنسبة إليها، لكن الأوان حان لتخرج من عزلتها تلك. مضى زمن ظننت فيه أن هذه الغرفة ستصبح الامتداد الوحيد لعالمها من دونه، إلى أن عدت أنت.

- كلام فارغ، ميغان هي الشخص الوحيد الذي عليك أن تشكره.

لكن وجه غاي حدثها أنها على خطأ.

- ليس لديك فكرة عن مدى افتقاد أمي لك.

- أنا أيضاً افتقدتها. وافتقدت القرية. . .

فقال برقة: «وأنا، ألم تفتقديني؟».

وعندما لم تجب، أحاط وجهها بيديه ما جعل نبضها يتسارع والجو بينهما يشحن بالكهرباء، ثم أحنى رأسه ليلامس شعرها بخده. فتمتمت من دون أن تحاول الابتعاد عنه: «النباتات. . .».

- يمكنها أن تنتظر. . . أما أنا فلا أستطيع.

- لا، لقد وعدت والدتك بالاهتمام بها.

لكن، عندما همت بالابتعاد عنه، تجمعت المشاعر في يديها اللتين

لك».

لاحظت كايت أن النباتات قد أصابها بعض الضعف، كما رأت في الغرفة قطعاً من الأثاث، كلها قديمة رثة وكأنها جمعت من أحد أسواق الأثاث المستعمل في باريس.

وكأنما قرأ غاي أفكارها فقال: «منذ أيام الدراسة، كانا يشتركان في شقة صغيرة. . .».

- أتعني والديك؟.

فقال وعيناه تعكسان مقدار حبه لوالديه: «كانا فتيين ومتحابين».

تقدمت منه لتستطيع رؤية الصور الفوتوغرافية. في تلك الصور القديمة بدت الكونتيسة شابة رائعة الجمال يتألق وجهها حيوية. . وحباً.

- كان والدك بالغ الوسامة.

قالت هذا وهي تلاحظ الشبه الكبير بينه وبين أبيه. ومرّت بإصبعها على خصلة شعر بنية مائلة للاحمرار، مربوطة عند زاوية الإطار بشريطة بيضاء من الدانتيل اصفرت مع مرور الزمن.

- إنها من شعر أبي قصّتها أمي وهو نائم أثناء شهر العسل وربطتها بشريطة باقة أزهار عرسها.

فقالت برقة: «يا للرومنسية! هذا من أجمل الأشياء التي سمعتها في حياتي. لا بد أن أمك أحبته كثيراً».

- أنا الذي أحببته كثيراً، أما بالنسبة إليها فكان حياتها كلها.

فقالت وهي تنظر إليه بحرارة: «علينا حقاً أن نساعدها».

رأت ألم الخسارة في عينيه كما رأته في عيني أمه فمدت إليه يدها: «أعلم أنك أنت أيضاً تتألم».

فقال وهو يمسك يديها يرفعهما إلى شفتيه: «كلنا نتألم».

www.elromancia.com

وضعتهما على صدره وحوّلت دفعها الحازم له إلى مجرد ملامسة.

- حسناً، تفقدي النباتات، إذا كان ذلك يرضيك.

تركها تذهب، لكنها ظلت تشعر بقربه. تشوقت إليه بكل حواسها.. لقد انتظرته طويلاً، بل هما الإثنان قد انتظرا بعضهما البعض طويلاً. وقفت لحظة، من دون حراك، تحدق إلى النباتات التي تنتظر اهتمامها بها، عادت فنظرت إلى غاي. كانت قوة رغبتها في العودة إليه بقدر قوة رغبة تلك النباتات في الحياة.

- هيا، اذهبي.

والتقت أعينهما... وكأن قوة مغناطيسية شدّتهما إلى بعضهما البعض. وعندما رآها تتردد، مرّ بيده على طول ذراعها وهو ما زال ممسكاً بها، ثم قال: «دعينا نتفحصها معاً».

سارا ببطء يتفحصان كل نبتة بدورها. ثم قال وهو يديرها إليه:

- أظن أننا قمنا بواجبنا، أليس كذلك؟.

- لم أفهم...

فهمس في أذنها: «أظن أن من حقنا أن نهتم بنفسينا نحن أيضاً».

* * *

لا بد أنها في حلم، كما أخذت كايت تفكر وهي تسير في أجنحة القصر.. فهي لم تدخل هذا الجزء من القصر قط من قبل. لكن ما إن أغلق غاي الباب خلفهما حتى شعرت بالخجل، وكأنها صبية صغيرة في أول موعد غرامي لها.

عندما رأى غاي وجهها، أمسك بيدها يدخلها إلى إحدى الغرف بعد أن أضاء النور. كانت الغرفة توحي بالنظام والاسترخاء

جالت كايت ببصرها، وإذا بها ترى أربع مرايا كبيرة مؤطرة بالخشب،

تلفت النظر إلى مجموعة من الصور التي تمثل مباني مكاتب. وعندما رآها غاي تحدّق إليها، وقف خلفها ويداه حول خصرها باسترخاء وهو يقول: «إذا شعرت يوماً برغبة في التخفيف من العمل، فليس عليّ سوى أن أنظر إلى هذه الصور لكي تذكرني كم عليّ أن أعمل لكي أبقي شركاتي مزدهرة».

وراحت أصابعه تلامس عنقها إلى أن أحسّت كايت وكأنها مغلفة بشرنقة من الإغراء. ثم عاد يسير إلى جانبها مسترخياً ورأت كايت أن مشيته هذه مثيرة للغاية، حتى كادت تذوب ما جعلها تجبر نفسها على الابتعاد عنه قبل أن تسأله بنعومة، وهي ترفع إليه وجهها: «وماذا عن إلهاء كهذا؟».

فقال وأنفاسه تلامس وجهها: «هذا ضروري للحياة».

وعندما تحركت إلى الأمام ارتفعت يداه لتضماها إليه، ولكن قبل أن تصلا إلى هدفهما ابتعدت كايت عنه وهي تهتف: «ما أجمل هذه الأزهار!».

تنسيق هذه الأزهار أثار فضولها فقد أسبغ بعض الرقة والليونة على هذا الذوق الرجولي الذي يسود. نظر إلى كايت وعيناه تلمعان هزلاً: «قالت لي مديرة المنزل إن هذه الغرفة بحاجة إلى أزهار».

- حقاً؟.

تملّكها الارتياح، إذ تخيّلت للحظة، سكرتيرته التي كانت تزداد حلاوة وإغراء في ذهنها كل يوم. لكنها استطاعت أن تقول باتزان: «السيدة دبليس على صواب، فالأزهار جميلة وقد أضفت رونقاً على المكان».

- أحقاً؟.

- حسناً، هذه الغرفة...

وسكتت علّها تجد الكلمات المناسبة.. لا يحق لها أن تعلّق على ذوقه العصري الذي لم تتوقعه في الأثاث.

- أليس هذا ما توقعته؟ ولكن عندما يعيش الشخص طوال عمره محاطاً

www.elromancia.com

بروعة وفخامة قصر فيلينوف، يجد أنه يكاد لا يحتاج إلى شيء. أتريدين عصيراً؟.

قال هذا وهو يخلع سترته ويلقي بها على إحدى الكراسي. وعندما رأى اللمعان في عينيها بدت على شفتيه ابتسامة خفيفة.

تمالكت نفسها بسرعة وحوّلت نظراتها بعيداً عن كتفيه العريضتين وصدره الأسمر الواسع.

قالت متحدية وهي تنظر إلى وعاء يحتوي على ثلج وزجاجة عصير: «هل كنت تنتظر أحداً؟».

- أنت فقط.

تمالكت كايت نفسها وهي تنظر إليه، ثم قالت: «وكيف أتأكد من ذلك؟».

فقال وهو يثني كميه إلى أعلى: «لا يمكنك التأكد».

سمعت كايت صوت تنفّسها يتسارع ويعلو في هذا السكون. لا سبيل لتجاهل قوة ساعديه، أو للخطأ في تفسير النظرة البادية في عينيه. وفكرت كايت في أن عليها أن تتمتع بهذه اللحظات وكأنها جزء من حلم لذيذ.

مرّ الوقت من دون أن يلاحظا. قادها غاي إلى غرفتها متمنياً لها ليلة مليئة بالأحلام السعيدة. أتراها ستحلم بغير سيد القصر البالغ الرجولة، الذي يملأ أفكارها منذ أيام الصبا؟.

* * *

استيقظت كايت على صوت باب غرفتها يفتح، لتجد غاي مرتدياً ثيابه ومستعداً للخروج. كان يرتدي البذلة الرسمية الداكنة مع القميص المنشى وربطة العنق. ما أطلق في ذهنها أجراس الإنذار.

- آسف لأنني أيقظتك، لكنني أردت أن أخبرك بأنني مضطر إلى

الخروج.

- إلى أين أنت ذاهب؟.

وقبل أن يجيبها اقترب منها ثم انحنى يعانقها عناقاً سريعاً مربكاً يناقض الانسجام الذي كان بينهما منذ ساعات. قال بلطف وهو ينتصب واقفاً: «لم أشأ أن أوقظك، لكن ثمة أمر مستعجل في العمل. لا تقلقي، لن أغيب طويلاً، عودي إلى النوم».

بدا صوته مواسياً وما إن خرج من غرفتها حتى عادت إلى النوم... عندما استيقظت من جديد تذكرت أن غاي لم يقل شيئاً عن الرحيل بعيداً. فكرت في ذلك وهي تلقي عنها الغطاء وقد شعرت أن ثقتها بنفسها تهتز في الصميم. لم يتحدثا بشكل صريح، كما تذكرت وهي تنتصب جالسة. وهاجمتها التخيّلات مرة واحدة فمحت الشعور بالأمان، لتحل مكانه الشكوك. لكن هذا ليس طبعها، كما أدركت وهي تكافح للتمسك برباطة جأشها: إنها عقلانية منطقية وحذرة بطبيعتها... ودفنت وجهها بين يديها. هذا ما اعتادت أن تكونه إلى أن قلب غاي حياتها رأساً على عقب...

ولماذا عليه أن يخبرها عن مكان ذهابه؟ وأي حق لها عليه؟ شعرت بالغثيان وهي تعض شفتها بشدة، محاولة ألاّ تهتم لهذا الأمر. لكن المشكلة هي أنها تحبه، وقد أحبته دوماً ولن تتوقف عن حبه. ولكن ماذا لو لم يكن يحبها كما تحبه؟ وبحثت حولها بلهفة عن تلك المرأة القوية المستقلة التي كانتها، لكي تمدّها بخطة الإنقاذ. لكن عبثاً، فهي تعلم أن عليها أن تأخذ ما قد يمنحها إياه غاي بالشروط التي يفرضها هو.

٩ - امرأة في متاهة

- ماذا تعنين بقولك إن الكهرباء عادت فانقطعت؟ لقد أعادها غاي لتوّه.

طرحت كايت هذا السؤال على ميغان حال عودتها إلى «البيت الصغير».

- جاءت امرأة تحمل تحت إبطها لوحاً للكتابة ورزمة أوراق، وتركت لك هذا.

قالت ميغان هذا متجهمة وهي تناولها المغلف، ثم تابعت تقول: «أين سيادته؟ قد تحتاجينه».

فقالت كايت بذهن شارد وهي تتجه إلى مائدة المطبخ: «غاي؟ لديه اجتماع عمل مستعجل».

شعرت وكأنهما افترقا منذ ساعات، ساعات بدت لها طويلة للغاية من دونه.

- أهو في القصر؟.

قالت كايت وقد شعرت فجأة بعدم الثقة في نفسها: «لا أدري إلى أين ذهب».

- هل تناقشتما بشأن «البيت الصغير»؟.

فأجابت كايت بضيق: «لا. آسفة، لم نتطرق إلى هذا الموضوع. رويت النباتات ثم ذهبت إلى النوم... ثم...».

وتلاشى صوتها، إذ لم تكن أمهر من ميغان في الكذب.

- هل من خطب؟.

- أخشى ألاّ يستمتع الفوج التالي من زبائننا بنفس الضيافة والإكرام اللذين ظفر بهما الفوج الأول حسب البريد الالكتروني.

راحت ميغان تنظر بقلق إلى كايت وهي تنشر المستندات على المائدة، ثم قالت: «أراهن على أن هذه الأوراق لا تحمل خبراً طيباً أيضاً».

سألت كايت وهي ترى المكان هادئاً للغاية: «أين الجميع؟».

فأشرق وجه ميغان قليلاً وردّت: «بما أن الكونتيسة في القصر، فقد دعت الجميع إلى نزهة في حدائقه. جاء سائقها الشاب وأخذهم في الباص».

- سائقها الشاب!.

كررت كايت هذه العبارة بشيء من التسلية، لكنها سرعان ما قلّبت مرة أخرى وهي تتصفح المستندات... يا إلهي! هذه ترجمة أخرى للعقد، ورسالة تقول إننا إذا استمرينا باستغلال «البيت الصغير» بصفة «نزل» ستغلقه مزرعة فيلينوف....

وألقت الأوراق على المائدة باشمئزاز وهي ترتجف. هل هذه هي مفاجأة غاي الصغيرة لها؟ هل خطط لأن يكون بعيداً حين تنفجر القنبلة؟ هل من الممكن أن يكون هذا من فعل شخص آخر يعمل مستقلاً... شخص يستغل غيابه ليحقق مكاسب شخصية؟.

سألتها ميغان بقلق: «لا أظنها ترجمة المستندات التي تدفعين أجراً من أجلها، أليس كذلك؟».

- طبعاً لا. سألقي عليها نظرة عندما يعود المحامي من إجازته.

- قد تكون كلاماً فارغاً، ولا يمكن أن يكون غاي هو مرسلها. ولعله لا يعلم شيئاً عنها.

www.elromancia.com

- وكيف يمكنني التأكد من ذلك؟.

أجابت كايت بذلك شاعرة بالخوف من أن يكون غاي قد غدر بها.

- لا يمكنك التأكد من شيء قبل أن تتحدثي إليه. أنت تعلمين أن أمه تعشق فكرة امتلاكك «مضافة» هنا. وقد قلت بنفسك إنه ممتن جداً للدور الذي لعبته نشاطاتنا في شفائها.

فقالت كايت: «لم يقل هذا بالضبط. يمكننا القول إنه تكهن فقط بما نفعله ثم أغمض عينيه، أثناء الحفلة على الأقل. وأنا لست واثقة من تقبّله فكرة تحويلنا «البيت الصغير» إلى مركز عمل دائم».

- لا بأس إذن. والآن، كل ما أنت بحاجة إليه هو أن تتحدثي إليه، يا كايت...

- ليت الأمور تتم بهذه السهولة.

أجابتها ميغان بثقتها المعتادة بالنفس: «لكن الحياة بهذه السهولة فعلاً، فقط لو أنك تأخذين الأمور ببساطة».

- اشتراك الكونتيسة معنا بمثل تلك الحماسة، لا يعني أن بإمكاننا أن نقنع غاي بمشروعنا هذا. أنت رومنسية ميؤوس منها يا ميغان، لماذا يرسل إلينا غاي مجموعة أخرى من المستندات إذا كان موافقاً على مغامرتنا؟.

فقالت ميغان: «ومن قال إنه الذي أرسلها؟».

- ألم تقل لك المرأة ذلك؟.

- وإن يكن!.

حاولت كايت أن تقنع ميغان العنيدة: «كان لديه الكثير من الفرص للتحدث معي، لكنه لم يفعل».

- ربما كان ذهنه مشغولاً بأمر آخر. ولكن، لنفرض أن سيادته هجرنا... ماذا ستفعلين بمشكلتنا الصغيرة؟.

انتصبت كايت في جلستها وكأنها قررت أمراً: «أخبريني عن تلك المرأة».

- شقراء، رائعة الجمال في الثلاثينات من العمر. تملك كل ما تملكه سمكة القرش من غرائز الصيد.

- هل أعجبتك؟.

- بدت واثقة من نفسها. من تراها تكون؟.

- ليس لدي فكرة، ربما مديرة المزرعة.

- ستجدين حلاً، كعادتك دوماً. أليس كذلك؟.

- سأغتسل ثم أذهب مباشرة إلى مكتب المزرعة.

بعد حمّام سريع، اتصلت كايت بمكتب المزرعة وما لبثت أن وجدت نفسها تتحدث إلى المرأة التي تحدثت إليها من قبل، والتي يفترض أنها سكرتيرة غاي.

- مريم داربو، هل من خدمة؟.

بدا الصوت نافد الصبر، قبل أن تشرح لها كايت سبب اتصالها.

- أنا كايت فوستر.

فقالت المرأة بصوت أكثر صلابة: «الآنسة فوستر، هل أفهم أنك قرأت المستندات التي أحضرتها هذا الصباح إلى الكوخ؟ لقد حملتها بيدي لأتأكد من وصولها إليك سالمة».

وتكهنت كايت بأن المرأة اغتنمت أيضاً الفرصة لتلقي نظرة على الأنحاء. وميغان المسكينة نادراً ما تكون حذرة... ربما ظنت أن المرأة نزيلة جديدة. ولم تشأ كايت المغامرة فتابعت تقول بحذر ولكن بحزم: «بما أن الكونت خارج البلاد، فأحب أن أرتب موعداً فورياً مع من ينوب عنه عند غيابه».

مرّت ثوانٍ عدة من الصمت حتى كادت كايت تسأل إن كانت المرأة ما

زالت على الخط، ثم تكلمت المرأة: «أنا هو يا آنسة».

شعرت كايت أن في صوتها مزيجاً من التسلية والتهجم. فقالت بهدوء: «في هذه الحالة، أحب أن أقابلك».

من تراها تكون هذه المرأة بحق جهنم؟.

- أخشى ألاّ يكون هذا ممكناً يا آنسة، فأنا مشغولة جداً في الأسبوعين القادمين، كما يمكنك التصور...

فقالت كايت ببرودة: «تدبري الأمر، لا يمكنك أن توزعي أوراق الطرد ثم ترفضي بصراحة وحزم أن تناقشيها».

مرّت لحظات قالت بعدها المرأة بملل: «قد أستطيع تدبير الأمر، علي أن أراجع مفكرتي».

- سأنتظر.

وسمعت خشخشة أوراق كثيرة في الناحية الأخرى من الخط. وأخيراً، سمعت الصوت يقول بضجر: «لا، يا آنسة.. كما أخبرتك من قبل، آسفة...».

فقالت كايت بحزم: «سأكون في مكتبك في التاسعة من صباح الغد. هل ستكونين في المكتب عند الساعة التاسعة؟ لن آخذ الكثير من وقتك، الوداع».

وضعت السماعة وأبقت يدها عليها. المكالمة التالية التي أجرتها كايت كانت لمحاميها في إنكلترا، لكنه لم يعد بعد. فكرت لحظة في الاتصال بغاي، ولكن... إذا كان يساندها فما من داع للقلق، ويمكنها حل المشكلة بنفسها. وإذا لم يكن إلى جانبها... ففي هذه الحالة لن يكون أمامها خيار إلا القيام بالأمر نفسه. ثم أدركت أنها لا تملك حتى رقم هاتفه الخلوي فابتدأ القلق يتملكها مرة أخرى.

سألتها ميغان وكأنها تقرأ أفكارها: «هل استطعت حل المشكلة؟».

ثم اتكأت إلى المائدة وأخذت تتفحص كايت والقلق بادٍ على ملامحها، فقالت كايت: «لم أحلها بعد، لكنني أخذت موعداً لمقابلة المرأة التي أحضرت الأوراق».

- لا أود حضور تلك المقابلة.

- معك حق، لا أتصور أن المشهد سيكون ساراً.

غمزتها ميغان وهي تتناول فرشاة الرسم قائلة: «حسناً.. من الأفضل أن أجلس هذا المساء لإعطاء الدروس الفنية».

فقالت كايت ساخرة: «النور يتسلل من خلال الأشجار على ضفاف النهر عند الغروب...».

نصحتها ميغان وهي ترمقها بدهاء: «لا تعبثي معي يا آنستي الصغيرة البريئة. ولا تنسي أننا، أنا والكونتيسة، وجدنا عذراً جيداً لكي نمنحكما أنت وغاي بعض الوقت لتمضيانه معاً».

ربما كان من الأفضل لو أن هذا لم يحدث، كما أخذت كايت تحدث نفسها، شاعرة بالضعف مرة أخرى. وأخذت تتمتم وكأنها تحدث نفسها، فنظرت إليها ميغان متعاطفة وقالت بنبرة ملؤها الحنان: «عندما يعود غاي سيصبح تفكيرك أكثر صفاءً».

شعرت كايت بوخزة أخرى من القلق، وقالت برقة: «أرجو أن تكوني على صواب».

- لِمَ لا تتصلين به وتريحي نفسك؟.

يا لَميغان الحلوة العملية... طبعاً عليها أن تتصل به. لو أنهما فكرا في تبادل أرقام الهاتف لنفعهما هذا! لكن، لماذا يفعلان ذلك طالما أن غاي لم يعطها أقل دليل على أن أي شيء سيتغير في مزرعة فيلينوف أثناء غيابه؟ إنه إما

عديم الضمير والأخلاق وإما غافل تماماً عمّا يدور حوله. وتملكت كايت التعاسة.

- أستطيع أن أواجه هذا الأمر بشكل جيد جداً وحدي ومن دون عون غاي.

قالت هذا مدّعية ثقة بالنفس لا تشعر بها. لكن ملامح ميغان لم تكن مشجعة، فسألتها كايت: «ماذا؟ أتظنين أن تلك المرأة غير ما تبدو عليه؟».

- لا أدري من تكون أو ماذا تكون. ولكن كل ما أعرفه هو أنني لم أحبها، حذار منها يا كايت.

- لا تقلقي يا ميغان. أنا لم أدعُك لكي تنضمي إلي في هذا المشروع لتخسري كل شيء من دون أن تبدي مقاومة. كما أنني لا أنوي المغامرة، ثمة الكثير رهن الخطر هنا.. بالنسبة إلينا جميعاً.

- وكيف ستتصرفين مع هذه المرأة؟.

- أولاً... سأقتلها عطفاً ومحبة. لن أضع نفسي تحت رحمتها، مهما كلفني الأمر. ولكن عليّ أن أماطل حتى أتمكن من معرفة من تكون، وإلى أي مدى نفوذها، وكيف أبتعد عنها إلى أن أتمكن من الاتصال بغاي.

* * *

وجه الآنسة داربو ملائكي، وجسدها يجعل الرجل ينتحر من أجله. كانت ميغان على صواب في أن هذه المرأة تملك غرائز الصيد كلها التي تملكها سمكة القرش. كانت ترتدي بذلة وقميصاً أبيض بالغي الأناقة. لكن ما لفت انتباه كايت هو خاتم ذو فص كبير من الياقوت الأزرق المحاط بالماس في إصبع الخطبة من يدها اليسرى. تجاهلت ما شعرت به من قلق من أن يكون لهذا الخاتم علاقة بغاي، واستقامت في وقفتها لتواجه أبرد عينين زرقاوين رأتهما في حياتها قائلة بلطف: «يدهشني أن الكونت لم يذكر نيته في تنفيذ العقد بالقوة قبل أن يقوم برحلته هذه».

فقالت داربو: «ربما قرر التصرف بعد أن رآك، وقبل أن يتحدث إلي».

فتابعت كايت بهدوء: «أظن أن ثمة خطأ ما. لكنني واثقة من أن بإمكاننا أن نصل إلى تسوية معقولة ترضي الفريقين».

- أظن أن مزرعة فيلينوف كانت أكثر من صبورة بالنسبة إليك، يا آنسة فوستر. الكونت دي فيلينوف يتوقع إنهاء هذا الأمر قبل عودته.

وتناولت مغلفاً عن المكتب ناولته لكايت.

- ما هذا؟.

- لماذا لا تفتحينه لتري؟.

فضت كايت المغلف وعيناها على وجه مريم داربو، ثم أخرجت أوراق رقيقة عدة، هي عبارة عن لوائح بالتصليحات التي أجريت في الكوخ..

قرأتها بعينين متسعتين، فتبين لها أن المبالغ طائلة. وعندما رأت تفاصيل المدفوعات بدا لها أن غاي أنفق عليه مبالغ طائلة...

- بالنظر إلى ضخامة المبالغ المدفوعة، تريد مزرعة فيلينوف منك التنازل عن الأملاك...

- أنت تطلبين مني الإخلاء؟.

- هذا صحيح، مع التنفيذ الفوري.

فسألتها كايت ببرودة الثلج: «بأي سلطة؟».

- سلطتي هي سلطة شريكي...

لم تشأ كايت أن تسمع أكثر من ذلك، فقفزت واقفة... لم يخطر لها قط أن لغاي شريكاً. وهي واثقة تماماً من أن هذه المرأة هي نفسها التي تحدثت إليها هاتفياً... وظنتها سكرتيرته. وانقلبت معدتها وهي تتساءل عما إذا كانت قد افترقت تلك الغلطة التقليدية... غلطة الاعتداء على أملاك الغير... غلطة ينبغي أن تكون آخر إنسان يقترفها على وجه الأرض...

ونظرت مرة أخرى إلى شروط الدفع على القائمة، ثم قالت: «أنا بحاجة إلى مقارنة هذه التفاصيل مع الأرقام الموجودة عندي. وأظن أن لدي فرصة ثمانية وعشرين يوماً...».

فقاطعتها المرأة: «الدفع مستحق على الفور، فبعض هذه الأعمال انتهت منذ أسابيع. كما لاحظت أمراً منذ جئت إلى هنا وهو مدى الإهمال الذي لحق بقسم المحاسبة...».

فقالت كايت بهدوء: «أحقاً؟ وهل تعملين هنا منذ مدة طويلة؟».

فقسم المحاسبة هو الأفضل منذ استلم غاي الأملاك.

- طويلة بما يكفي، والآن إذا سمحت لي... أنا مشغولة جداً...

ووقفت، فقالت كايت بحزم: «يجب أن تعلمي أن أي مبلغ من المال لن يقنعني بمغادرة «البيت الصغير» يا آنسة داربو. وأنا ملتزمة كلياً بإكمال إصلاح الكوخ، عليك أن تفهمي...».

فقاطعتها المرأة بعنف: «كلا، آسفة لأنني لا أفهم».

قالت كايت بلطف: «ومع ذلك فهذا واقع. وهكذا لن أفكر أبداً في ترك الكوخ، أو دفع هذه المبالغ إلا بعد أن أتحدث إلى الكونت».

بدا واضحاً أن مريم داربو توقعت أن يكون الأمر سهلاً، ولم تتوقع أبداً أن تكون المقابلة مع كايت بهذه الصعوبة، فقالت: «حسناً، لن تعود الطاقة الكهربائية إلى الكوخ، وإذا لم تدفعي فسنرفع قضية. أما بالنسبة إلى ترتيب مقابلة مع الكونت...».

وهزت كتفيها وكأن المقابلة مع الكونت لن تجدي شيئاً على الإطلاق.

- لقد تدبرت الأمر من قبل من دون كهرباء.

قالت كايت هذا بهدوء رغم أن قلبها كاد يتوقف فزعاً عند التفكير في النزلاء القادمين.

- أما بالنسبة إلى رفع قضيّة عليّ...

وهزت كتفيها. فقاطعتها مريم داربو: «ستجدين أن الكونت يوافقني على أمر المستندات، وأنا أعلم أننا، نحن الاثنين، متفقان على أن أكواخ العطلات تشوّه المزرعة... فكيف بتلك النُزُل التي تستقبل زبائن».

الطريقة التي ألصقت بها مريم داربو نفسها بغاي، كانت آخر قشة بالنسبة إلى كايت، فردت عليها ببرودة الثلج: «نُزُل؟ لا أعرف نُزُلاً في مزرعة فيلينوف!

- أتريدين أن تخبريني بأن «البيت الصغير» يمكن أن يوصف بأي طريقة أخرى؟».

شعرت بإغراء بأن تجعل من المستندات كرات صغيرة ترغمها على ابتلاعها، لكنها حاولت التمسك بما تبقي من سيطرتها على نفسها ثم تابعت تقول: «لست واثقة من أن الكونت سيوافقك الرأي».

جادلتها بحزم، وتملكها الرضا وهي ترى ومضة من الضيق تبدو في تينك العينين الزرقاوين الحجريتين فتابعت: «فلماذا لا نمنحه الفرصة لإبداء رأيه؟ ربما تتصلين بي قبلي، يا آنسة داربو. سأدون رقم هاتفي هنا على هذا الدفتر، لأتأكد من أنه معك».

أضافت جملتها الأخيرة بشيء من السخرية وهي تقف. أصبحت نظرات مريم داربو بحدة السيف، وكأنها تتلهف إلى قطع ركبتي كايت لتجعلها تعفر وجهها بالتراب. لكن ذلك لا يمكن أن يحدث، كما أنها لا تريد أن تحقّر نفسها بأن تطلب رقم هاتف غاي منها. سارت إلى الباب رافعة الرأس وهي تقول من فوق كتفها: «وداعاً يا آنسة داربو».

كان وميض المعركة لا يزال في عيني كايت عندما وصلت إلى الكوخ. ولكن عليها أن تستعد لإعطاء درس في الطهو بعد الغداء مباشرة، وسوف يريحها أن تضع طاقتها في التحضير لذلك. وفيما هي منهمكة في تحضير

المكونات اللازمة لكل زبون، رن هاتفها الخلوي.

- غاي! غاي!.

لم تستطع أن تسمع بوضوح، لكن قلبها الذي راح يخفق كالرعد أخبرها أنه المتصل. ثم انقطع الخط فجأة. أخذت كايت تروح وتجيء في المطبخ تهدهد الهاتف كالطفل، متلهفة كي يعاود الاتصال... يمكنها أن تتفاهم معه على الأقل، لتخبره أي سكرتيرة شريرة، أو شريك أو أي صفة يريد أن يطلقها عليها، تركها خلفه لتتولى الأمور في غيابه. راحت تغلي غلياناً وهي تفكر في كل الأسباب التي تجعله يتخلص من المرأة. وكادت تسقط الهاتف من يدها عندما رن مرة ثانية.

- غاي... أين أنت؟ كيف حصلت على رقم هاتفي؟ الخط فظيع.

فقال بحزم: «كفى كلاماً وأخبريني فقط، هل أنت بخير؟».

أخافها القلق الذي بدا في صوته فقالت: «طبعاً أنا بخير».

- فقط...

فانفجرت بفروغ صبر: «غاي، غاي.. أعطني رقم هاتفك على الأقل...».

لكن الخط انقطع مرة أخرى، وما إن نظرت من النافذة حتى رأت أن زبائنها عادوا من القصر. مهما كان ما أراد غاي أن يخبرها به، فلم يعد الوقت مناسباً له الآن..

حاولت أن تتجاهل رجفة التوجس التي أثارها فيها اتصاله، فحوّلت انتباهها إلى المجموعة المحتشدة حول الباص. كانت وجوههم تتألق من التعرض لشمس الصيف الدافئة، ولم يكن ثمة مبالغة في القول إنهم تغيروا منذ وصولهم إلى «البيت الصغير». وللحظة، شعرت بالحسد؛ فقد وجدوا شيئاً غير عادي ليأخذوه معهم إلى بيوتهم.

هتفت ميغان وهي تدخل إلى المطبخ بحيويتها المعتادة: «يا له من وقت رائع أمضيناه!».

وقذفت بحقيبتها الملونة على المائدة وهي تضحك مضيفة: «أنا مرهقة للغاية».

فهمت كايت الإشارة، فقالت: «لا تخافي، سأستلم الأمور الآن. هناك عصير برتقال طازج في الثلاجة، سأحضر لك بعضاً منه».

وعندما امتلأ المطبخ بالثرثرة الحماسية، غمرت البهجة الجميع وشعرت كايت بطاقتها تزداد كل دقيقة. قالت سيدة مسنة بشيء من الخجل وهي تساعد كايت في توزيع الأشربة: «دخلنا في «المتاهة» في القصر».

فقالت كايت بحرارة: «حسناً، على الأقل، تمكنتم جميعاً من الخروج من المتاهة، وهذا إنجاز كبير، أنا أتذكر أنني ضعت في تلك المتاهة مرات عدة..».

فقالت ميغان ببشاشة: «كنا نظن أنك تتعمدين ذلك. هناك شخص واحد فقط يعرف كل المتاهة جيداً وهو الكونت دي فيلينوف الشاب، وهكذا كان لفت انتباهه طريقة جيدة. أليس صحيحاً يا كايت؟».

- لا أستطيع التعليق على ذلك.

قالت كايت هذا وهي تتساءل إن كان قلبها سيقفز دوماً لدى سماعها اسم غاي. وخطر لها أنها طالما لم تخدع ميغان أو عمتها، وطالما أنهما أدركتا نواياها، فذلك يعني أن غاي يعرفها أيضاً... التفكير بالطريق المتعرج أعادها إلى التساؤل أين تراه يكون ومتى يعود... ورأت ميغان القلق على وجهها، فسألتها: «ألم تسمعي خبراً من غاي بعد؟».

هزت كايت رأسها وهي تتساءل عما منعه من الاتصال مرة أخرى. ظهر في صوته توتر حقيقي حين تكلم معها، أتراه يحاول تحذيرها من شيء ما؟ أم تراه يطمئن إلى أحوالها؟ إنها بحاجة لأن تسأله عن أمور كثيرة... عن مريم

داربو على الأخص. . هل عليها أن تتبع عقلها وتستنتج أن مريم داربو شريكة غاي كما هي أيضاً. . .؟ وقطعت تفكيرها عند هذا الحد. إن الوقت غير مناسب للتفكير في الأمور الشخصية. . . ثم، لماذا لا تؤمن فقط بغاي كعادتها دوماً؟.

- إنها مسألة ثقة.

قالت هذا بصوت مرتفع من دون تفكير، وكأنها لم تعد تستطيع احتمال أفكارها العاصفة. وعندما التفت كل من في الغرفة لينظر إليها، أضافت بسرعة: «أعني المتاهة. . . الثقة يلزمها وقت لتكون. . . ربما تحتاج إلى سنوات في الظروف الطبيعية. . . بينما أنتم جميعاً وصلتم إلى الثقة ببعضكم البعض خلال أيام وجيزة وهذا جيد، أليس كذلك؟».

ونظرت حولها بعجز. وإذا بميغان تهب إلى نجدتها في عاصفة من التصفيق وهي تهتف: «براڤو. . من يدري ما الذي كان سيحدث لنا من دون ثقة؟».

فقال ديرل وهو ينظر إلى أصدقائه الجدد: «مع الثقة سنعود جميعاً إلى هنا السنة القادمة».

تأثرت كايت بكلامه الخجول هذا، وتملكها الارتياح عندما ارتفعت أصوات الجميع بالموافقة على قوله. كان هذا كل ما تحتاجه لكي تلقي بمخاوفها جانباً، وتستعيد تصميمها على الاهتمام بزوارها. وعندما وزعت عليهم بعض الكعك المحلّى العابق برائحة الزنجبيل، لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في أنها لولا ثقتها بغاي لاستمرت في التساؤل حتى الآن من عساها تصدق، مريم داربو أم غاي؟.

في ذلك المساء نفسه، كانت كايت وحدها في المطبخ عندما وصلت الكونتيسة دي فيلينوف. جاءت وحدها سيراً على قدميها وهي تبدو في حالة سيئة، حتى أنها سقطت بين ذراعي كايت حين فتحت لها الباب. هتفت كايت

وهي تجرها إلى الداخل: «ماذا حدث يا كونتيسة؟».

- تلك المرأة. . . .

قالت ذلك وهي تلهث مستندة إلى ذراع كايت التي قادتها إلى مكانها المفضل قرب الموقد القديم. لم تكن كايت بحاجة إلى أن تسأل من تعني الكونتيسة بكلامها. قالت الكونتيسة وهي تشهق: «هذه المرأة قالت أشياء فظيعة».

- اهدأي وتنفسي بعمق، ثم حاولي أن تخبريني بما حدث.

فتابعت الكونتيسة وصوتها يهتز: «لم أستطع أن أبقى هناك. لم أستطع أن أنظر إليها وهي تتصرف على سجيتها في منزلي، خصوصاً بعد الكلام الفظيع الذي قالته. فاضطررت إلى القدوم إلى هنا. أرجو أن أكون قد فعلت الشيء المناسب. . .».

- طبعاً فعلت ذلك. ولكن هل تعنين أن مريم داربو انتقلت إلى القصر؟.

لم تستطع الكونتيسة سوى أن تومىء بتبلّد: «لقد أخذت خاتم خطوبتي».

تمكنت من قول هذا في النهاية وهي تنظر إلى وجه كايت بعينين معذبتين. وعرفت كايت من العينين المحمرتي الأجفان كل ما أرادت معرفته: «أتعنين خاتم الياقوت والماس؟ لا تقلقي، أعدك بأن أستعيده لك».

قالت كايت هذا وقد ألهبها تصميم لا يقوى إرهاب مريم داربو على صدّه، ثم أضافت الكونتيسة بتردد: «هذا ليس كل شيء. . .».

فقالت كايت وهي تركع بجانبها: «أخبريني ماذا أيضاً؟».

- يجب ألا أزعجك بهذا، ولكن. . .

- لا تقولي ذلك، بحضورك إلى هنا قمت بخطوة صائبة.

هزت الكونتيسة رأسها بقنوط: «شعرت أنني بحاجة إلى مكان آمن. . .

مكان يمكنني فيه أن أحاول هضم كل الفضائح التي قالتها».

- ما هي تلك الفضائح؟ وما الذي قالته كي تجعلك تتأملين بهذا الشكل؟.

- قالت...

وزمّت الكونتيسة شفتيها وقد صعب عليها أن تعبّر عما عرفته بالكلمات. فقالت كايت بلطف وهي تأخذ يدي الكونتيسة بين يديها: «أنا أعرف عمن تتحدثين، فقد قابلتها. وهكذا.. لا شيء مما تقولينه يمكن أن يدهشني».

- أنت تعرفين إذن، يا كايت، مبلغ صلابتها... ومبلغ قسوتها...

- أعرف مبلغ أنانيتها... وإرغامها الآخرين على فعل ما تريد. لكنني أعرف أيضاً أنها متحكمة في من هم أضعف منها، وليس بإمكانها أن تضرنا بشكل حقيقي.

فهتفت الكونتيسة: «ألا يمكنها؟ أنت مخطئة...».

- لِمَ لا نستدعي الشرطة؟ يمكننا ذلك الآن، لا يحق لتلك المرأة أن تتنقل في القصر...

- لا! أنت لا تفهمين يا كايت، يبدو أن لديها كل الحق. بإمكانها أن تسبب لنا جميعاً ضرراً كبيراً... ليس لديك فكرة...

- أخبريني بكل شيء، وبهذا يمكنني أن أريح ذهنك.

فتنفست الكونتيسة بعمق: «لا بأس، تقول... إنها ابنة غير شرعية لزوجي الراحل، والد غاي...».

- ماذا؟.

- وأن لا خيار أمام غاي سوى أن يجعلها شريكته...

وانفجرت في شهقات متلاحقة لم تستطع التحكم فيها. كان بإمكان

كايت، في تلك اللحظة، أن تطرد مريم داربو من المزرعة للضرر الذي أحدثته، لكنها بدلاً من ذلك أحضرت منشفة وسألتها بهدوء: «هل أعطتك أي برهان على ذلك؟».

هزت الكونتيسة رأسها بقوة: «أيمكنك أن تصدّقي مدى قسوتها؟ إنها تقول إن راؤول والد طفل آخر بينما أنا أعلم أننا لم نمض ليلة واحدة بعيدين عن بعضنا البعض منذ ليلة زواجنا».

فقالت كايت بلطف: «لقد فعلت هذه المرأة شيئاً فظيعاً قاسياً، لكنك تعرفين الحقيقة. والآن، علينا بشكل ما، أن نثبت أنك صادقة وأن تلك المرأة كاذبة محتالة».

- ولكن كيف يا كايت... كيف؟ إنها تخيف كل من في القصر...

- لا أظنها تخيف السيدة دبليس.

- لا، ولكن في غياب غاي لا أحد يعرف من عليه أن يصدق. إنهم خائفون ولا يعرفون كيف عليهم أن يتصرفوا.

تعلم كايت أن لا سلطة لديها تسمح لها بالتدخل... عليها فقط أن تكون ببراعة خصمها. وكأنما قرأت الكونتيسة أفكارها، فسألتها: «أتظنين أن بإمكاننا أن ننتظر لحين عودة غاي. من يعلم ما قد تسرقه غير ذلك؟».

- وهل هناك أكثر من ذلك؟ أنا بحاجة لمعرفة كل شيء.

أومأت الكونتيسة ثم قالت بصوت أقوى: «قالت إن لديها إثباتاً بأنك أنكرت صحة العقد وإن لديها السلطة لاستعادة ملكية «البيت الصغير». وطلبت مني أن أوقع على بعض المستندات...».

- لا أظنك فعلت ذلك:..

- كلا، وهذا هو سبب حضوري إلى هنا، لأبتعد عنها.

فتنهدت كايت بارتياح: «هذا حسن».

www.elromancia.com

- لكنها تقول إن بإمكانها أن تنتزع الملكية من غاي إذا وجدت برهاناً على أنه يعلم شيئاً عن... عن... أنا آسفة يا كايت، عن مشروعك.

فقالت كايت وهي تمسك بيد الكونتيسة: «فلنتوقف هنا ونظر إلى الأمر بشكل موضوعي. لماذا انتظرت هذه المرأة حتى الآن لتظهر نفسها؟ لماذا لم تحضر لرؤية زوجك في حياته؟».

مالت الكونتيسة إلى الأمام متسعة العينين: «تقول إنها بقيت حتى الآن كي تجمع الأدلة».

- هل استطعت أن تتحدثي إلى غاي بهذا الشأن؟.

- لا يا كايت، وأنت؟.

- أحسنت الآنسة داربو اختيار التوقيت. ولسبب ما، يجد غاي صعوبة في استعماله هاتفه الخلوي ولولا ذلك لاتصل قبل الآن بمدة طويلة.

- أتظنين أن أحدهم عبث به؟.

قالت الكونتيسة هذا مستمتعة بما تتذكره من قصص الجرائم وذلك بعد أن منحتها كايت بعض الأمل: «لكنه سيتصل من أي هاتف عمومي إذا شعر بأن لدينا مشكلة هنا، فأنا أعرف غاي. سيحضر حتى في الليل...».

- في الواقع، أظن ذلك ممكناً تماماً. فكثيرون منا معرضون للخطر ولا أظن أن مريم داربو تعمل وحدها. لم أستطع أن أحفظ رقم هاتفه عندما اتصل... لكنه قد يكون في طريقه إلى البيت الآن...

قالت هذا بلطف فقالت الكونتيسة بلهفة: «أحقاً تظنين ذلك؟».

- أينما كان غاي الآن، فأنا من ستمنع مريم داربو من التسبب بالمزيد من الضرر.

- أتظنين أن بإمكانك ذلك؟.

- نعم، باستطاعتي أن أقوم بذلك. أما الآن، يا كونتيسة، فأرى أن

تمكثي هنا الليلة. نامي الآن وسنعالج الأمر عند الصباح.

- كلامك يغريني بذلك، فأنا أحب أن أبقى. ولكن ماذا عن السيدة دبليس؟ لا بد أنها قلقة عليّ للغاية.

- دعي السيدة دبليس لي، إنني بحاجة إلى التحدث إليها على أي حال.

- حسناً، إذا كنت واثقة من ذلك.

- واثقة تماماً.

أكدت لها كايت ذلك وهي تساعدها على الوقوف، ثم طبعت قبلة على خدها: «اصعدي ونامي. إن الغرفة التي استعملتها من قبل، جاهزة لك... فقط عند الحاجة...».

قالت هذا مبتسمة ثم تابعت: «وعليك أن تعلمي أن القلق لا مكان له هنا في «البيت الصغير»».

أخذت كايت تنظر إلى الكونتيسة فيما رمقتها هذه الأخيرة بثقة وقد بان عليها الارتياح قبل أن تصعد السلم.

بعد أن اطمأنت على السيدة العجوز، سارت إلى الهاتف وطلبت رقماً. وكما توقعت، لمست تعاوناً من السيدة دبليس، لا سيّما وقد تخطت الآنسة داربو حرمة منطقتها كمديرة منزل. قالت مديرة المنزل بلهجة غضب بقدر ما تسمح لها سنوات من التهذيب وضبط النفس: «إنها تلبس الآن كل الملابس التي اشترتها لك الكونتيسة».

- الملابس لا تهم، هل يمكنك القيام بما أطلبه منك؟.

استغربت كايت أن يشغل بال امرأة كمديرة المنزل أمور تافهة كهذه بينما الخطر أكبر من ذلك بكثير.

- طبعاً يا آنسة فوستر، هذا يسرّني.

- حسناً، سأحضر من أجل رزمة الأوراق في الصباح الباكر قبل أن

يستيقظ أحد.

- فهمت تماماً يا آنسة فوستر، سأكون في انتظارك عند المدخل الخلفي للجناح الغربي عند الفجر.

بعد أن ابتدأت بتنفيذ مشروعها، كتبت كايت رسالة مختصرة لميغان تنبهها فيها إلى أن الكونتيسة تنام الليلة عندهما وتطلب منها أن تودع النزلاء. لحسن الحظ، أن هذه المجموعة وصلت قبل الموعد بأيام، إذ سيسود الهدوء الآن إلى حين وصول المجموعة التالية.

لم تنم كايت طوال الليل. إنها واثقة من أن مريم داربو ليست سوى محتالة واثقة من نفسها، امرأة غرضها الوحيد من القدوم إلى فيلينوف هو سلب كل ما بإمكانها في غياب غاي. هذا اليقين بالإضافة إلى قناعتها بأن هذا هو يوم محاسبة الآنسة داربو، جعلاها تستيقظ وترتدي ملابسها وتخرج من الكوخ مع أول خيوط الفجر.

كانت تسير بسرعة وصمت، واضعة في جيبها المغلف المختوم رسمياً. قفزت إلى سيارتها متجهة إلى القرية مباشرة. كان السيد ديبونت ينتظرها أمام الصيدلية، محدقاً إلى الاتجاه الذي ستطل منه. قال وهو يصعد إلى جانبها: «أخي ينتظرنا في المختبر، هل لديك كل ما يتطلبه الأمر؟».

فقالت وهي تناوله المغلف: «نعم، لقد ألصقت السيدة دبليس قطعة من الورق على كل دليل في المستند».

- كذلك «الشعر»، كما ذكرت؟.

فقالت: «هذا صحيح، خصلة من شعر الكونت المتوفى ومجموعة شعر من فرشاة الآنسة داربو».

- عظيم، سوف نفضح هذه المرأة باختبار (د. ن. أ) بسيط ونريح بال الجميع.

- أرجو أن تكون على صواب.

قالت كايت هذا وهي تتحرك بالسيارة، فقال: «أؤكد لك يا آنسة فوستر، أنني لا أخطىء أبداً».

* * *

ابتسمت كايت فوستر على الرغم من الإرهاق الذي يمتلكها. لقد ثبت أن السيد ديبونت على حق، وشعرت بالامتنان لأخيه أيضاً، إذ ظهرت نتيجة الاختبار بسرعة، وثبت أن مريم داربو محتالة. لقد نقلتها الشرطة إلى خارج القرية وهي الآن رهن التحقيق في مخفر الشرطة المحلي بينما «الانتربول» في انتظارها.

أدركت كايت أن ولاءها تغير كلياً بعد كل ما حدث. لقد تمسكت بقرية فيلينوف وبكل من له صلة بها بشكل أكبر من السابق. حتى أن وضعها السابق كمديرة منفذة لمؤسسة «الإجازات الحرة»، بهت مقارنة بذلك.

تعبير السعادة الذي بدا على وجه الكونتيسة حين تأكدت من أن زوجها كان مخلصاً لها، لا يمكن لأي صفقة مالية مربحة أن تثيره. أدركت كايت الآن السبب الذي جعل غاي يعتبر دوره في أملاكه هو أن يكرّس حياته كلها لها.

أما ميغان فهي من الأشخاص الذين يتركون بصمتهم واضحة في حياة الآخرين، فقد كانت صديقة رائعة للعمة أليس، وهي الآن تضع الكونتيسة تحت جناحها بعد احتفالهن العاطفي بالنصر. أرادت كايت من والدة غاي أن تمكث ليلة أخرى، لكن بعد أن اتصل بهما غاي ليخبرهما أنه في طريقه إلى البيت، اختارت الكونتيسة العودة إلى القصر، فقط لتطمئن نفسها إلى أن كل شيء عاد إلى طبيعته.

انتظرت كايت أصوات الليل المعتادة لكي تساعدها على النوم، وأدركت أن فيلينوف أصبحت موطنها الآن. سوف تستقيل من مجلس إدارة مؤسسة «الإجازات الحرة» في أقرب وقت، وعندما تستطيع إقناع غاي

بأن «المضافة» يمكن أن تعزز خططه العملية للمزرعة، سوف تركز طاقاتها كلها على إدارة «الاستراحات الحرة» في «البيت الصغير».

١٠ - كبرت معك ولأجلك!

قفزت كايت من سريرها عندما انهال رشاش من الحصى على نافذتها تبعه قرع متلاحق على الباب الأمامي. أشعلت الضوء فرأت أن الساعة هي الثانية صباحاً. من الطارق في هذا الوقت؟ إلا إذا كانت حالة طارئة. اختطفت رداءها وأسرعت تهبط السلم ومشاهد مفزعة تملأ ذهنها. اضطرت إلى البحث في الظلام حتى استطاعت أن تشعل شمعتين قبل أن تهرع إلى الباب. وخوفاً من أن يكون القادم شخصاً غير مرغوب فيه، صرخت: «من هناك؟».

- أدخليني يا كايت.

- غاي؟.

وأخذت تعالج القفل إلى أن تمكنت من فتح الباب وهي تشهق بارتياح وترتمي بين ذراعيه: «غاي؟ ظننتك لن تعود أبداً».

- حاولي أن تبعديني عنك.

قال هذا بصوت أبح وهو يضمها إليه، فنظرت إليه بقلق، ثم قالت وهي تمرّ بأصابعها على لحيته النابتة حديثاً: «متى وصلت؟ تبدو متعباً للغاية».

- لم أهدر الوقت بالنوم، لكنني لا أريد أن أتحدث عن رحلتي.

قال هذا وعيناه تتألقان دعابة في ضوء الشموع، ثم أثبت كلامه بعناق حارٍ طويل. لهفته إليها أنبأتها بمقدار شوقه لها ما أيقظ حواسها فمنحت نفسها له وذابت بين ذراعيه دون أن تزعج نفسها بإخفاء شوقها إليه وهي تجره

www.elromancia.com

إلى الداخل. أمسك غاي بذقنها وهو يقول بحذر: «هيه... ماذا عن ميغان؟».

- إنها في القصر مع أمك وأنا هنا وحدي.

نظرت إلى شفتيه وهما تلتويان بابتسامة: «في هذه الحالة، هل يمكنك أن تعطيني غرفة لقضاء الليل؟».

أعطته جوابها بعناق حميم. وعندما ابتعدا عن بعضهما البعض، سألته برقة: «أين كنت؟».

ثم تخللت شعره بأصابعها وكأنها تريده معها إلى الأبد.

- كنت أضع تلك المستندات اللعينة في مرقدها إلى الأبد.

- وكيف فعلت ذلك؟.

- مجموعة من المحامين اقتفت آثار بعض المستندات الأصلية الموجودة في سرداب تحت الأرض في باريس. أرسلت في طلبي كي أشهد على صحة ذلك في المحكمة.

- وماذا بعد؟.

- أغلق الملف بنجاح مساء أمس، ولمصلحتنا.

- آه، يا غاي. كم أنا سعيدة لأجلك.

قالت هذا بصوت أبح وهو يمسك ذقنها ويرفع وجهها إليه. قال: «اتصلت بالقصر وسمعت بما فعلت من أجل أمي ومن أجل المزرعة. لا أستطيع أن أصدق أنك تمكنت من القيام بكل هذا وحدك...».

- لم أعد فتاة صغيرة الآن، يا غاي. وقد فعلت ما كان عليّ أن أفعله...

فقال بالفرنسية: «قمت بذلك بشكل ممتاز».

قالت مازحة: «سيجعلني هذا أصاب بالغرور».

- كوني جادة ولو للحظة، يا حبيبتي، وإلا كيف يمكنني أن أشكرك وأنت بهذا الشكل؟.

- إذن، أنت لم تعد غاضباً مني؟.

- رباه، أنا أغضب منك يا كايت؟ ما الذي تتحدثين عنه؟.

- لأنني أنشأت هذه «المضافة» دون استشارتك؟.

- جميل أن يملك الإنسان طاقة لابتكار أفكار جديدة. من يقول إنني أملك كل الأجوبة الصحيحة؟

- تملك أكثرها بالنسبة إليّ؟.

- أكثرها فقط؟.

سألها بصوت كالهمس وهو يداعب شعرها، ثم نظر حوله عابساً وهو يرى الشموع: «لماذا تعيشين في الظلام؟».

فقالت بجفاء وهي تحضر مزيداً من الشموع: «لأن الكهرباء انقطعت مرة أخرى».

فهتف وهو يلحق بها ليعيدها: «لا أصدق ذلك، ألم يتم وصلها من قبل؟».

كان ليصدق ذلك لو أنه يعرف مبلغ حقد مريم داربو عليه، كما فكرت كايت بأسى. ولكن ألم تسبب الآنسة داربو ما يكفي من أذى؟

- بلى، لكن هذا مجرد انقطاع طارىء، سأبحث في أمره غداً.

وعندما حاول أن يجادلها وضعت أصابعها على شفتيه قائلة: «غاي، لا أريد التحدث عن الكهرباء».

رأت ملامحه تتحول من السخط إلى التسلية ثم إلى شيء مختلف: «يا بطلتي الصغيرة... ليس لديك فكرة عن مدى حبي لك».

وأحاط خصرها بذراعه، فهمست: «أتحبني؟».

www.elromancia.com

جذبها إليه وعانقها.

- غاي...

مرت دقائق قبل أن يتمكنا من الكلام، ثم سألته بخجل: «هل كنت تعني ما تقول؟ هل تحبني حقاً»؟

فهتف متكلماً بالفرنسية.. ثم عاد يقول بالإنكليزية وهو يضمها من جديد بين ذراعيه: «آسف، ماذا فعلت بي يا كايت؟ لم أستطع أن أفكر لحظة بالإنكليزية، طبعاً أنا أحبك. كيف تشكّين في ذلك؟».

- أنت إذن...

- لقد أخبرتك لتوّي بالفرنسية أنك أهم شخص لدي في العالم.

فقالت بصوت منخفض: «وأنا أحبك أكثر من حياتي».

عندئذٍ تحرك غاي راقصاً وراح يؤرجحها في أنحاء الغرفة قائلاً: «أتعنين حتى آخر حياتك؟».

- حتى آخر حياتي.

قالت هذا وهي تلتصق به، فقال وهو يتجه بها نحو السلم: «أنصحك بأن ترشديني إلى الغرفة التي سأنام فيها قبل أن أفقد السيطرة على نفسي وتصبحين في خطر».

راحت كايت تضحك ثم سارت أمامه نحو السلم وهي تكاد تطير من فرط السعادة.

عندما جلسا لتناول الفطور عند الصباح راح غاي يلتهم ملامح وجهها كلها بنظراته وكأنهما تقابلا لتوّهما. ثم قال: «أحياناً لا أستطيع أن أصدق أن هذه اللحظة جاءت».

سألته بلطف وهي تطوق عنقه بذراعيها لكي تنظر إلى وجهه: «ولِمَ لا؟».

- لأنني أردتك منذ اللحظة التي عدت فيها إلى حياتي. ولكن فرق

السن...

فقالت ضاحكة: «إنه ليس كبيراً، إنه يكفي فقط لكي يضمن خبرتك في... بعض الأمور».

راح غاي يضحك وقد أرجع رأسه إلى الخلف ثم قال: «أنت حالة ميؤوس منها، ولكن عليك أن تكوني جادة ولو لحظة».

- إذا شئت.

- نعم، أشاء ذلك.

قال هذا متصنعاً الجد وهو يلامس شعرها الذهبي يتسرب خلال أصابعه: «لا أستطيع أن أتصور كيف امتنعت عن إغوائك طوال تلك المدة...».

قالت مداعبة بكل الاطمئنان الذي منحه لها حبه: «أنت بالغ الثقة بنفسك».

فقال بكل ثقة الرجل المعتد بنفسه: «واثق تماماً، وأعترف بأن وقتاً طويلاً انقضى قبل أن أدرك أنك لم تعودي تلك الفتاة الصغيرة التي اعتادت أن تزور عمتها في فيلينوف كل عام...».

- لكنني هي نفسها.

- نعم، من بعض النواحي، لكنك أصبحت امرأة رائعة الجمال.

- حسناً، أرجو أن أكون قد تحسنت أخيراً.

- طبعاً.

وغمز بعينيه هازلاً: «دعينا نعتبر أنني مسحور بك وبما تفعلينه».

- هل هذا يعني أنك موافق على نشاطاتي في الكوخ؟.

- أنت لا تدعين فرصة تفوتك، أليس كذلك؟ لكنني مضطر للاعتراف بأن هذه الثورة في نفسك هي التي تجذبني دوماً إليك.

www.elromancia.com

فقالت ببراءة: «أتعني رغبتك بترويض القطة على الأقل؟».

وكانت تعلم بأنه يبتهج للغاية بأن يسمّرها مكانها كلما تحدّته بقوة، فسألته متظاهرة بخيبة الأمل: «هل هذا كل ما أعجبك فيّ؟».

نظر إليها ببطء قبل أن يقول: «بل كل ما فيك يعجبني».

والتفت ذراعاه حولها لتشدها إليه، فحاولت أن تهرب ثائرة. لكن غاي ثبتها في مكانها قائلاً: «لِمَ لا تتعلمين الخضوع؟».

أخذت تقاومه وقالت: «أبداً!».

- حسناً، عليك أن تهدأي وإلا فاتك ما سأقوله لك.

وأخيراً هدأت مقطبة الجبين، فقال: «هذا أحسن».

- ماذا ستقول لي؟.

- أولاً، أحب أن أشكرك لأنك أعطيت أمي فرصة جديدة للحياة...

- ذلك من دواعي سروري، وأنت تعلم ذلك. لكن لا يمكن أن يكون هذا ما لديك لتقوله لي، ماذا لديك أيضاً؟.

- أشكرك على نصيحتك لي بألاّ أعتمد على وكالة للحصول على الموظفين المهمين لديّ...

- أتعني مثل مريم داربو؟.

- بالضبط. هل علمت أنها سرقت خاتم أمي؟.

فقالت: «طمأنني رجال الشرطة إلى أنهم استردوه. كان ذلك أول ما سألت عنه عند القبض على مريم داربو».

- فلننتقل إلى خطتك في إنشاء دار ضيافة في مزرعتي.

فقالت وهي تجاهد لقراءة ملامحه الغامضة: «ألن تمانع في ذلك؟».

- هناك شرط واحد.

- وما هو؟.

- أنا مصر على أن تؤسسي نفسك في القصر.

- في القصر! قد يكون هذا معقولاً إذا انتقلت أمك إلى الكوخ...

فقاطعها راضياً: «آه، كنت أرجو أن تقولي هذا».

- لماذا؟.

- لأنها تثق بي. أوضحت لي أن القصر مليء بالذكريات المؤلمة بالنسبة إليها، أينما استدارت ترى أبي...

- أتفهم ذلك، فقد عاشا معاً فترة طويلة يا غاي... وإذا أمكنني أن أفعل شيئاً... أي شيء يساعدها...

- أظن أن بإمكانك ذلك. الدفء والإلفة اللذان يمتاز بهما الكوخ كان لهما تأثير كافٍ عليها لا أريده أن يتوقف. فهي تقول إنها الآن أسعد من أي وقت آخر منذ حادث الاصطدام، وهذا بسبب عودتك والجو الرائع الذي أوجدته في الكوخ. ومع موافقتك يا كايت، فكرت في أنها قد تجد مع مرور الوقت، الرغبة في الحياة مرة أخرى.

- أنا أرحب بها طبعاً. يمكنها أن تأخذ ما تشاء من وقت. وذلك ليس لمصلحتها فقط، بل لمصلحتنا أيضاً، فقد ساعدتنا بشكل رائع. لقد أحبها الجميع ليس فقط لأنها الكونتيسة... فهي صاحبة أفكار بناءة وحضورها ممتع أيضاً.

- كما أنها اكتسبت الكثير منك ومن ميغان ومن الزبائن.

ووجدت كايت أن من العدل أن تحذره، فقالت: «قد لا يكون كل الزبائن بكياسة الفوج الأول».

- أظن أن لديها بعض الفولاذ في بنيتها، بالإضافة إلى سحر العالم القديم. لقد عادت إلى الاهتمام الحقيقي بالحياة، يا كايت... وهو شيء ظننت أنني لن أراه مجدداً...

www.elromancia.com

- أنت تعلم كم أحب أمك يا غاي، فإذا استطاعت أن تتسلّم المسؤولية هنا مع ميغان. حسناً... يمكنني إعطاء دروس الطهي في القصر بسهولة. والمطبخ هناك أوفى بالغرض بالنسبة إلي من المطبخ هنا...

- ما سمعته منك أراحني. إننا في فيلينوف نحب القيام بالأمور بشكل جماعي.

بدا عليها التأمل وهي تفكر في كلماته مقطبة الجبين، ثم عادت ملامحها فانبسطت حين وصلت إلى قرار: «أنت حقاً لا تدرك كم أنت محظوظ في انتمائك إلى شيء غير عادي كهذا».

- بل أدرك ذلك. ألست أنت كذلك يا كايت؟.

- أنا! هل تمزح مرة أخرى؟.

وعندما لامس ذراعيها أخذت ترتعش، وقد تأكدت من أنه يعبث معها كعادته دوماً. لكنه رد ساخطاً: «أنت جزء من فيلينوف مثلي تماماً يا كايت، وأنت تعلمين ذلك في أعماقك، وهذا هو سبب عودتك».

- أنت بالغ الحكمة.

قالت هذا بلطف وهي تدس وجهها في كتفه بعد أن بعثت نظراته السخونة إلى وجهها. فقال بلهجة مطاطة تظهر رجولته المتفردة: «ما دمت ترينني بالغ الحكمة، فأنت لن تظنيني أحمق عندما أطلب منك أن تتزوجيني».

اتسعت عيناها وهي تلتفت إليه بدهشة فتابع بهدوء: «لا أستطيع أن أعدك برحلة سهلة، في البداية على الأقل، إذ ما زال لدي بعض المشاكل التي عليّ أن أحلها بالنسبة إلى الأملاك».

سرت في كيانها رعشة إثارة وهي تحدّق إليه، بينما بدا غاي غافلاً عن مشاعرها المضطربة، وتابع يقول: «أظن أن بإمكانك مواجهة ذلك».

- نعم يا غاي.

- علي أن أخبرك أن استعمالك لتحليل الدم «د. ن. أ» كان عظيماً حقاً...

- نعم يا غاي.

قالت عبارتها الأخيرة بشيء من الإلحاح فسكت ونظر إليها متسائلاً:

- نعم سأتزوجك.

قالت هذا بثبات وهي تنظر بعينين يملأهما الحب، إلى عيني هذا الرجل القريب منها والذي أدركت الآن أن جذورهما كانت دوماً ملتفة حول بعضها البعض.

تمتم بلطف: «كاتي فوستر الصغيرة... قد كبرت الآن».

فهمست وهي تنظر في عينيه: «هذا صحيح، كبرت لأجلك ومعك يا غاي».

ثم تغيرت ملامحها إلى شكل مألوف لديه وقالت: «لكن هل أنت واثق تماماً من أن بإمكانك أن تحتمل العيش معي؟».

تظاهر بالتفكير في الأمر لحظة: «يمكنني أن أحاول. أتظنين أن بإمكانك أنت أن تحتملي العيش بصفتك الكونتيسة دي فيلينوف؟».

فتكوّرت شفتاها: «يمكنني أن أحاول».

قالت هذا بوقاحة وهو يأخذها بين ذراعيه يعانقها.